العزبــة

يوسف نبيل

- المؤلف: يوسف نبيل
- العنوان : العزبة
- الطبعة: الأولى 2021
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠٢١ / ٩١٢٣
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 296 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

العزبـــة

رواية

يوسف نبيل

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

نبيل، يوسف

العزبة

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2021

120 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 9123 / 2021

الترقيم الدولي 4 – 296 – 765 – 977 – 978

1 – روايات

2 – العنوان

العزبة

من أين نبدأ قصتنا؟ هل ثمة نقطة بداية ونقطة نهاية؟ إنها موجة لا ندري من أين بدأت ولا إلى أين سينتهي بها المطاف. كتابتها وقراءتها يشكلان كذلك جزءًا منها، ويشترك في تلك الموجة عدد لا نهائي من العناصر. أنت تُمسك بالكتاب الآن، فهل يمكنك تتبع المسار الذي قادك إلى قراءة هذه السطور تحديدًا؟ ستتيه وسط لا نهائية العناصر بلا جدوى.

يقول ليف تولستوي في يومياته: «السبب والنتيجة -بحسب مسمياتنا- ليسا إلا الآتي: السبب هو ما تم الكشف عنه وسط مسار معين للأفكار التي يتكون منها الموضوع، أما النتيجة فهي كشف وسط مسار معين للأفكار، أو كشف عن موضوع حادِث بالفعل. مثال: معدتي تؤلمني. السبب وسط مسار معين للأفكار هو: تناولتُ طعامًا عسير الهضم. وسط مسار آخر: لم أفكر في ضرورة ضبط نفسي عن تناول الطعام. وسط مسار ثالث: أنا وسط ظروف تغويني بالطعام المترف. وسط مسار رابع: أفسدتُ أعضاء الهضم بسبب عدم ضبط نفسي سابقًا

في تناول الطعام. وسط مسار خامس: أمر وراثي... إلخ. الأمر كذلك مع النتائج أيضًا. سبب حلول الليل يعود إلى حركة الشمس قبل حلول الليل. سبب الفعل الشرير يعود إلى ظهور فهم خاطئ للحياة. لا يمكن أن يكون هناك سبب بعينه لأي ظاهرة كانت. ثمة عدد لا نهائي من الأسباب السالفة، وكل منها يصلح أن يكون سببًا فعلًا. نحن نطلق كلمة «سبب» على تلك الحالة التي سبقت الظاهرة وكشفتها لنا وسط مسار معين من الأفكار».

نختبر جميعًا تلك الأحلام الغريبة التي تنتهي باستيقاظ النائم على إثر مؤثر خارجي: صوت طرق أو ضجيج أو تلامس أو سقوط. يبدو لنا ذلك المؤثر في صورة انطباع نهائي، وتبدو أمور كثيرة في الحلم كما لو أنها مُعدَّة له خصيصًا. أتذكر مثلًا ذلك الحلم: أصل إلى منزل أبي وألقاه على السلم ومعه بندقية. يدعوني لأذهب معه لقتل كلب مفترس، وأقول له: لا أملك سلاحًا. يقول: بإمكانك أن تأخذ الكمان بدلًا من البندقية. لا أتعجب من قوله، وأمضي معه عبر طرقات أعرفها جيدًا، لكن بمرورنا عبر هذه الطرقات أجد بحرًا غير موجود في واقع الأمر ولا أشعر بالتعجب. نجد سفنًا سائرة في البحر، وكذلك بعض التماسيح! يقول أبي: «أطلق النار!» أنفذ رغبته، وأرفع الكمان وأحرك قوسي، لكني لا أُصدِر صوتًا. عندها يقول: «حسنًا، سأطلق أنا»، ويُطلق النار. كان صوت الطلقة مدويًّا حتى إني استيقظت واكتشفت أن صوت الطلقة كان في الواقع صوت حاجز النافذة الذي صفقته

الرياح بعنف. كيف يمكن لشيء حدث لتوه وأيقظني أن تسبقه كل تلك المقدمات التي تؤدي في النهاية إليه في ثوانٍ معدودة؟ أدركتُ إذَنْ أن الزمن وهم، ومن ثم ازدادت حيرتي في طريقة الحكاية. إنها تراود ذهني وأحلامي وواقعي وخيالي في موجات متداخلة. لم يعد لترتيب العناصر معنى واضح، ومن ثم يمكنني أن أرى الحوادث في موجات لا نهائية، تكتنف كل منها الأخرى. تختلط عليَّ تفاصيل حكايات العزبة ومراد عبد العظيم ونظير ثابت وآخرين بلا أسماء. لا معنى إذَنْ لنقطة بداية أو نهاية.

أنا واقف أمام «وندرفول لاند– Wonderful Land»، ولو كنت بجانبي الآن لما استطعت أن ترى شيئًا سوى أسوار عملاقة وكشافات ضخمة ولون أخضر يغطي السور كاملًا. سور أملس تمامًا تغطيه نباتات خضراء لا يمكنك للوهلة الأولى اكتشاف ما إن كانت صناعية أم طبيعية. بوابات الحي الأربع تملؤها حراسات مشددة وكاميرات مراقبة، لذا لن يكون بوسعك إلقاء ولو نظرة سريعة على الحي من الداخل. يلفت الأنظار بشدة لموقعه القريب جدًّا من المعادي، بل يمكنك القول بأنه صار بمثابة امتداد لها. تقع أبواب الحي السكني جميعًا على الكورنيش في موقع ممتاز. في الآونة الأخيرة جرت العادة أن تُبنى مثل هذه الأحياء السكنية الفاخرة على أطراف القاهرة، بعكس هذا الحي، ولن يسع المار سوى التساؤل: كيف وُجِد هذا الحي الفاخر الغامض في تلك المنطقة الاستراتيجية؟ متى بدأ البناء ومتى انتهى؟

ولكن السؤال الأهم: ماذا كان هناك قبل بناء ذلك الحي؟ عشرة أعوام ليست مدة طويلة، ولكن مفعول النسيان ساحر حقًّا! لقد صار العثور على ماهية ما كان موجودًا في تلك البقعة قبل بناء هذا الحي أمرًا صعبًا. لو سألت الشباب فإما أنهم لا يعرفون أو أقصى ما يمكنهم أن يمدوك به من معلومات أنهم رأوا أعمال البناء هنا تتم على يد كبرى شركات المقاولات المصرية بسرعة مذهلة، حتى إن المار كل يوم كان يلاحظ اختلافًا واضحًا، وقبل أن يدركوا ما يحدث كان السور الخارجي قد شُيِّد وحُجِب المنظر تمامًا، ولم يعد بالإمكان رؤية ما يحدث بالداخل. لا تضم المنطقة المحيطة أي بنايات مرتفعة، وحتى لو ضمَّت، لن يرى سكانها شيئًا سوى مساحة خضراء شاسعة يصعب بعدها رؤية شكل الحي من الداخل. هذا ما ساعد على حياكة الأساطير حول المنطقة، وقد توفرت مادة خصبة لها بسبب الفخامة المذهلة للسيارات التي تخرج وتدخل من وإلى الحي، والأسلحة الغريبة التي يحملها الحراس على الأبواب، والتكتم المُحيِّر الذي يلزمه العاملون بالمكان. غموض تام. ولكن خلف الغموض لم يكن شيء أكثر من ثراء فاحش متوقع. نعم، إنه الثراء الذي يود أصحابه دائمًا أن ينعموا بمزيد من العزلة، وبتشييد أسوار تحجبهم عن العامة. أسعار الوحدات العقارية في الحي خيالية، وذلك لموقعه الممتاز داخل القاهرة، بعكس بُعد أغلب الأحياء الأخرى الفاخرة المترامية على الأطراف هنا وهناك، أما بالنسبة لوندرفول لاند، لن تستغرق سوى مهلة قصيرة قبل أن تكون في قلب العاصمة تمامًا. بالإضافة إلى الأسعار الباهظة، تُقيِّد عملية

بيع العقارات فيه إجراءات صارمة تضمن اختيارات محددة من الناس. لكن إذا سألت مَن تجاوزوا عمر الشباب سيخبرونك بقصة: «العزبة»، وسيقولون لك: كانت كائنة في ذلك الموقع قبل أن تحدث سلسلة الانهيارات الغريبة في المكان. وصف الرائون المنظر بالمخيف، فعشوائية المكان وتزاحم الوحدات السكنية الشديد فيه قد حوَّل انهيارًا بدأ بسيطًا إلى سلسلة طويلة من الانهيارات شكَّلت كابوسًا مرعبًا. أمواج من الوحدات تتساقط سريعًا، وانفجار كمية كبيرة من أنابيب الغاز وقد بدا الناس في محاولاتهم للهرب كالنمل عندما يحاول تجنب مصير الدهس من قدم غامضة. كان عدد الضحايا مهولًا، وقد اختلفت تقديراته بشكل غريب. صرَّحت الحكومة بأنه يقارب الألفين نسمة، قال البعض: بل تجاوز عشرة آلاف نسمة! في ظل السيطرة الكاملة على وسائل الإعلام الحكومية والخاصة لم يكن من المسموح أن يتحدث أي محاور تليفزيوني عن الأمر، ولم يكن هناك حتى اهتمام بمحاولة خلق قصة بديلة أو إلقاء اللوم على أحد أو حتى على القدر العاثر. كأنَّ فتوة خسيسًا يُمسك بياقة قميصك قائلًا: «نعم؛ حدث انهيار ومات فيه مَن مات، فماذا إذَنْ؟». وسط هذا الصمت الغريب تناقلت وسائل التواصل الاجتماعي أخبار الحادث المريع، لكن سرعان ما بدأ اقتناص أصحاب الأعداد الضخمة من المتابعين، ولُفِّقت القضايا وصدرت الأحكام سريعًا في محاكم عسكرية. لكن الناجين -إن جاز التعبير- لم ينسوا ما حدث. أقول «إن جاز التعبير»؛ لأن أغلبهم اختفى من الصورة تمامًا، وبعضهم لم يعد في حالة طبيعية، فهذا مثلًا

قد فقد قدرته على النطق منذ الحادث. يقولون: ما من عيب عضوي يحول بينه وبين التحدث، لكنها وطأة الصدمة النفسية. يستيقظ كل يوم مفزوعًا -لو استطاع النوم-، وقد تسبب اضطراب نومه لفترة طويلة في زيادة وطأة اضطرابه النفسي. يتوق شوقًا للنوم بلا جدوى. تُشكِّل الهالات السوداء تحت عينيه جزءًا أساسيًّا من تكوين وجهه الذي ظل ينكمش ويتجعد. حاول كثيرون معرفة قصة نجاته بلا جدوى. حاول أحد الأطباء أن يشجعه على الكتابة كطريقة للاستشفاء. قال البعض: إن وقتًا قصيرًا لن يمر قبل أن يقضي نحبه، فلا يمكن لإنسان أن يتحمل ما عاناه ذلك الرجل، لكنه عمَّر أعوامًا عديدة؛ أعوامًا من العذاب وعدم القدرة على النوم بشكل طبيعي لليلة واحدة. من قاع الجحيم تتصاعد إلى رأسه أصوات كثيرة تُشكِّل موجات متداخلة سائلة... متداخلة سائلة... متداخلة سائلة...

* * * *

يقول طفل: «قارب الحذاء على الاهتراء نهائيًّا، ولم تعد جهود أبي في ترقيعه ومعالجة ثقوبة مجدية. طلبتُ منه كثيرًا أن يشتري لي واحدًا جديدًا، وفي كل مرة كان ينظر إليَّ صامتًا دون إجابة». حسنًا، لأنه طفل لا يستطيع قول الكثير، سأتحدث أنا بدلًا منه، مُحاولًا استجلاء حالته. إنه يشعر بالخوف عندما يسمع صوت شجار أبيه مع أمه؛ فيغمض عينيه ويتخيل حذاءً جديدًا يرتديه غدًا، يراه أصدقاؤه في مدرسة أبو دقة، وينظرون إليه بإعجاب كما حدث مع أصدقائه محمد

وعبد السلام ومحمود. المشكلة أنه لا يستطيع الركض بذلك الحذاء المهترئ، فمن شأن أي حركة مفاجأة أن تقضي عليه نهائيًّا. لذا يغادر المنزل مبكرًا بعض الشيء؛ لأنه سيستغرق وقتًا طويلًا للوصول إلى المدرسة رغم قربها. المشكلة في تلك البقاع التي تغطيها الأوحال، بالإضافة لبعض البقاع الأخرى التي هبطت عن مستوى الطريق. لا بد من السير فوق مجموعة متراصة من الأحجار، والالتفاف بعيدًا عن منطقة البناء الجديدة المجاورة لـ«أبو دقة»، فمنذ أن بدأ العمل وأُحضِرت تلك الآلات الضخمة بدأت مواضع عدة من العزبة في الهبوط، وانفجرت مياه المجاري في عدة أماكن. يصل إلى المدرسة وقد اكتسب حذاؤُهُ ثقبًا جديدًا قارب على نزع مقدمة الحذاء تمامًا. يلوح الآن إصبعان من الحذاء، لا إصبعٌ كما كان الأمر قبلًا. يحاول إخفاء قدمه قدر الإمكان. لا يمكنه الركض أو اللعب. يمر اليوم بطيئًا جدًّا. لا يسمع شيئًا من حوله ويشعر بالحزن. ينتظر انصراف الجميع حتى يمكنه خلع الحذاء والسير حافيًا بدلًا من هذا العذاب. يسير فعلًا حافيًا، ويتوارى عن الأنظار قدر الإمكان، ولكن ما إن يخرج من المدرسة حتى يرتدي الحذاء ثانية. غطت مياه المجاري المنطقة تمامًا، وتغير المنظر في ساعات قليلة. يسير بطيئًا جدًّا، وأصوات غريبة تتناهى إلى أذنيه بين الحين والآخر؛ أصوات تشبه فرقعة أو طقطقة لا يعرف مصدرها. يتوقف ليسترق السمع. طقطقة ثانية وصراخ بعيد جدًّا. يشعر بالخوف وينظر من حوله، فإذا الناس جميعًا واجمون ينصتون كما يفعل تمامًا، وقد عم الصمت المكان

فجأة. تتناهى إليهم أصوات صراخ بمزيد من الوضوح. يقترب من المنزل، ثم يركض. يريد أن يرى بابا وماما... يريد أن يرى المنزل. يركض وتتعالى من خلفه أصوات مرعبة لم يجرؤ على الالتفات إلى مصدرها، لكن سرعان ما يُجبَر على التوقف. يجد المنزل الكائن على يساره يميل بصورة مرعبة. لم يرَ منظرًا كذلك أبدًا. يتسمَّر والبناية تقترب منه. قوة غريبة تقتلعه من مكانه وتُلقي به بعيدًا، وفي لحظات مرعبة يجد نفسه معلقًا في الهواء. يلتفت فيرى أحدهم وسط كومة من الحجارة ولا يلوح من جسده شيء سوى أصابع يد وخيوط من الدماء. ينهض ويركض بمزيد من الهلع وكل شيء ينهار من حوله حتى يقترب تمامًا من المنزل. كان آخر ما رآه هو خروج أبيه وأمه وجدته من باب المنزل، والحذاء الجديد وحده في يد أبيه؛ ذلك الذي وعده مرارًا بشرائه. ينادي عليه ثم يواريه الظلام. لا يزال غارقًا في الظلام. يظن نفسه نائمًا، لكنه يشعر بصعوبة التنفس. يحاول أن يتحرك فيصطدم، وسرعان ما يفهم أنه محاط بشيء لا يعرف كنهه، وأن المساحة المتاحة برمتها للتحرك لا تتجاوز خطوة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار. واقف في مكان ما وسط ظلمة حالكة، لكن لا يمكنه الانتصاب كاملًا في وقفته، بل تلزمه انحناءة خفيفة. ينقل قدمه في الخطوة المتاحة له على الجانبين محاولًا استكشاف ما حدث. أنين وصراخ وأصوات بعيدة، وكذلك انفجارات مروعة بعيدة تقترب حتى يشعر بألم الحصى الصغير يصيب وجهه من مكان ما، وكل ما حوله يهتز ثانية. يفيق على خيط ضوء رفيع وألم مُضْنٍ في

ساقه اليسرى. صراخ ونحيب وعويل. يدرك من الأصوات المتناهية إلى أذنيه أنه تحت الأنقاض وأن هناك مَن يسيرون فوقه، ومَن هم غارقون مثله في ذلك المجلس السفلي. يحاول تتبع شعاع الضوء ويُحدِّق فيه كأنه خلاصه الوحيد. للحظة يظن أنه يتوهم رؤية عين، ثم يتيقن من حقيقة ذلك فقد تلاشى الضوء للحظة ثم عاد، ثم تلاشى ثانية؛ فأدرك أن أحدهم ينظر من هذا الثقب. يصيح بكل ما لديه من قوة. يعود الضوء. نادى الرجل رفاقه قائلًا: «هنا... هنا!». يشعر بأقدامهم تخطو فوقه وأحدهم يطمئنه. يسأله عن أبيه وأمه وجدته ويسأله الرجل عن اسمه وأسمائهم فيخبره بالأسماء وسط بكاء وصراخ وهلع. لا بد أنهم يتناقشون حول الطريقة المثلى لإخراجه. يحاول أحدهم تحريك شيء ما، فيشعر بكل شيء من حوله يتهاوى ويصرخ وتتعالى فورًا الأصوات منادية بإيقاف العمل. يسمع صوت محدثه ثانية يخبره أن إخراجه الآن صعب؛ لأن أي محاولة للحفر قد تتسبب في انهيار آخر يميته. يصرخ ويحاول أن يُطمئنه ويقول له: سنرسل في طلب معدات خاصة تُمكِّنهم من إخراجه. يتذكر فجأةً عطشه. ليست هناك وسيلة لإنزال أي طعام. يحاول الرجل أن يسكب بعض قطرات الماء من ذلك الثقب البسيط ويحاول التقاطها، لكنه لا يستطيع. يسأل الطفل مجددًا عن أبيه وأمه وجدته؛ فيخبره الرجل أنه سيحاول أن يبحث عنهم، ويطلب منه التماسك ومحاولة النوم. لم يعد يميز النوم واليقظة، فهو يواجه صعوبة هائلة في تمييز الأصوات. الرؤية غائمة، والألم مُضْنٍ، لم يعد قادرًا على الصراخ.

لا يزال الرجل نفسه يحاول أن يُحدِّثه بين الحين والآخر. أحيانًا يجيبه الطفل، وأحيانًا أخرى لا يستطيع النطق. كل شيء غائم من حوله، ولم يعد يميز الأصوات بوضوح. تتوالى المحاولات لتوصيل قطرات من الماء إليه دون جدوى. لم يعد يميز الليل والنهار. يسمع صوت الرجل تلك المرة يقول أمرًا مختلفًا. يناديه بلجاجة. يحاول إجابته دون جدوى. الصوت لم يعد يخرج من حلقه و...

يزول الصوت وتتصاعد أصوات أخرى. نعيش وسط ضجيج لا ينتهي، وأصوات لا متناهية بدءًا من حركة أجرام ومجرات كاملة لا نراها وحتى صوت تقلصات قولون يتألم من كثرة البقوليات. من بين هذه الأصوات نحاول تتبع أصوات حكايتنا، هل يمكن أن نروي حكاية بعينها وسط فوضى التفاصيل؟ هل يمكننا تحديد بقعة زمنية ومكانية ونقول: في هذا المجال سنجد ضالتنا؛ سنجد حكاية واحدة مفهومة؟ إنها مهمة مستحيلة، ورغم ذلك نُقدِم عليها؛ فخلاصنا في أن نحكي. سنراقب حركة تلك الموجات المحيطة بالعزبة، ونتتبع أصواتًا تخبرنا عن حياتها، وبهذا التلصص المشروع يمكننا أن نفهم شيئًا ما وسط ذلك الضجيج.

يتصاعد صوت نظير ثابت قائلًا: لن أعود إلى الصيدلية ذاتها مجددًا. صار الأمر محرجًا مع ذلك الطبيب العجوز، بشعره المصبوغ، الذي يرمقني بنظرات ساخرة. مررت على صيدلية أخرى لم أشترِ منها شيئًا من قبل. آآه، إنها طبيبة. حسنًا، لا بد إذَنْ من البحث عن أخرى.

لم يطل ابتعادي كثيرًا حتى وجدتها. راقبتُ خروج آخر الزبائن منها ودخلت. اقتربت وقلت للبائع: «حبة فيجا وحبة عين كتكوت». أحضرَ لي القرصين ووضعهما في كيس صغير دون كلمة واحدة. دفعتُ الحساب وانصرفت. في كل يوم خميس مماثل أقضي طريقي من الصيدلية إلى المنزل غارقًا في صور وخيالات، وهي وحدها ما تعين على قضاء تلك الحياة. تنقض عليَّ الكثير من الأفكار المزعجة بالطبع، ولا بد أن لها دورًا كبيرًا في إصابتي بالتوتر مما يؤثر بالطبع على أدائي. من المؤكد أنها تفهم ذلك جيدًا، وتعرف كمية المصائب التي أخوض فيها كل يوم. عمل قذر وآلام في الظهر والركبتين، وقرحة المعدة وآلام البواسير... جيوش كاملة من كل ما من شأنه أن يعكر الصفو ويَحُول دون القيام بالأمر كما يجب، ولكنها ليلة؛ ليلة واحدة من شأنها أن تمدني بالبهجة. آه لو أنجح في إرسال الصايع إلى أي عمل بالخليج! يقولون إن الظروف تزداد سوءًا هناك، لكنها لن تكون بالطبع أسوأ من هنا. لم يُبْدِ هذا الصايع اهتمامًا أبدًا بالتعليم، وفشلت كل محاولاتي لإجباره على الدراسة بجدية. غبي، وليس له في العلام. يصيع طوال اليوم هنا وهناك، ولا يطلب مني شيئًا سوى المزيد من المال، لكني وضعت حدًّا لذلك. في الفترة الأخيرة تورطت أكثر من أي وقت مضى في العمل بالحي. كنت أُمنِّي نفسي بعدم المشاركة في عمليات الرشاوي، ولكن الأمر تغيَّر كثيرًا في الأيام الأخيرة. لم تعد الضغوط محتملة، وهذا ما يجعل هذه الليلة الأسبوعية اليتيمة أكثر أهمية. فلأُنَحِّ كل ذلك عن ذهني، و ليتركز تفكيري على أمر واحد؛

هو كل ما أحتاج إليه هذه الليلة. حسنًا، الصايع خارج المنزل كعادته، ودميانة ذهبت لاجتماع الكنيسة. حمدًا لله على ذلك الاجتماع الأسبوعي الذي يقتضي منها الخروج يوم الخميس. الوقت قليل والأمر صعب، لذا ما إن غادرت دميانة المنزل حتى جررت الولية من المطبخ إلى الفراش. المهم أن أنجح هذه المرة، فقد كان الفشل مريعًا في الأسبوع الماضي، وكان عليَّ تحمل نظراتها الساخرة طوال أسبوع. باشرت العمل. أغمضتُ عيني وتخيلت ثانية وثالثة ورابعة؛ تخيلتُ جيشًا كاملًا من الفاتنات. أظن أني نجحت! تقول لي بفخر: «ألم تلحظ دميانة؟ برزت مفاتنها هذا العام بصورة ملفتة». لا أجيب بشيء. ثم إني في الحقيقة لم ألحظْ شيئًا. كل ما أريده بضع لحظات من الراحة والمتعة، والأمر يزداد صعوبةً أكثر فأكثر. ذهني شارد. أفيق على قدومها. تغيرت الفتاة فعلًا في الأيام الأخيرة. أذكر أني عند استيقاظي البارحة ألقيت نظرة عليها وهي نائمة، وهالني تغير جسدها. لم تعد طفلة. قلت في نفسي: لا بد أن تنعم بفرص جيدة في الزواج. كل ما عليها أن تعتني بنفسها دون تفريط، ولا مانع من إجراء خطبة في فترة الجامعة شرط أن يكون العريس قادرًا، ومع هذه المفاتن لا بد أن تتحسن فرصها جدًّا. عليها بالطبع أن تحجبها، ولكن ليس تمامًا! من مدة لم أعد أتحدث معها تقريبًا. كانت تبادرني دائمًا بالحديث، وقد انقطع ذلك من مدة. أحاول تذكر أي شيء عنها خلال شهرين تقريبًا دون جدوى. قابعة في غرفتها بمفردها، طالما الصايع خارج المنزل، أو في الكنيسة. تقضي فترات طويلة هناك. يوم

الخميس اجتماع الفتيات، وتذهب لحضور قداس الجمعة، بالإضافة إلى اعتراف أسبوعي لدى أبونا أبرام. حسنًا، كلما ابتعدتُ عن المنزل شعر الجميع بالراحة، وفي الكنيسة لن يصيبها مكروه. الذهاب إلى أي مكان آخر يعني إنفاق المزيد من النقود. لم أعد أشعر بطعم شيء. مللت من جلسة المقهى، وتكرار نفس الأحاديث، وسماع مشاجرات الجيران والطعام الماسخ والفقر المذل. الحالة تتدهور سريعًا. لا بد أن يسافر الصايع إلى الخليج سريعًا، وتتزوج الفتاة. لم أعد أحتمل المزيد. الحفاظ على أدنى مستوى ممكن صار مستحيلًا، واقتحمنا الآن حيز الفقر الصريح. أود منذ شهور أن أشتري بضعة جوارب وعددًا قليلًا من الثياب الداخلية، وكلما توقفت أمام البائع، أجريت عشرات العمليات الحسابية، وانتهى بي الأمر إلى الانصراف خاوي اليدين، قائلًا في نفسي: إن بإمكاني تأجيل شرائها قليلًا. حتى متى يستمر ذلك؟ قد يكون الحل أمام عيني، ولكن آه من الخوف الخسيس! صحيح أن جميعهم يشارك في توزيع الرشاوي لكن ما يمنعني فعلًا من ذلك هو عدم معرفتي بقوانين اللعبة. لا مفر من الدخول إلى تلك الدائرة. ثم إني لن أسرق شيئًا أو أعتدي على حق الغير. هذه البنايات المخالفة ستُبنى سواء اشتركت في الأمر أم لا؛ فلماذا لا أستفيد من الأمر إذَنْ؟ أذكر ذات مرة أنه جاء البعض لمعرفة تفاصيل حيازة رخصة البناء من الموظفين لدينا بالحي، حاولوا إقناعهم مباشرة بتوفير هذه الإجراءات والبناء بشكل مخالف ثم تسديد بعض الغرامات لاحقًا. لقد أصبح الجميع يعيشون تقريبًا على ما يحصّلونه من مثل هذه

العمليات. حتى متى أقنع نفسي بأني لا أود الانخراط في ذلك؟ يجب أن أتحرك سريعًا.

* * * *

لا يعرف نظير شيئًا عن حكايات أولئك الذين دُهسوا تحت أنقاض أبو دقة، ولا يعرف أن كل خطوة يخطوها تُقرِّبه رغمًا عنه منها، تمامًا مثلما لا يعرف نجم أن حركته وسرعته ستفضيان به إلى الاصطدام بجرم ما، وأنه عبر ملايين السنين ربما يؤدي ذلك إلى تشكل جرم آخر أو وقوع كارثة محققة في كوكب قريب. وسط فوضى الاحتمالات والأصوات يتصاعد صوت مجهول قائلًا:

كنت أقول في نفسي: يومًا ما قبل أن أموت سأتمكن بإذن الله من تقديم هاتين الإسورتين الذهبيتين لابني، وستفرحان عنه ذلك الفقر قليلًا. كنت أحرص كل يوم على تغيير مخبئهما، ولم أخبر أحدًا بمكانهما أبدًا سواه. حتى زوجته وطفلاه لا يعرفون شيئًا عن أمرهما. حَسَمَ الأمر بقوله: لن أمد يديَّ أبدًا إليهما طالما مد الله في عمرك. لكن الأعمار بيد الله، والفقر يزداد وطأةً، ولم تعد حيلُنا تجدي نفعًا. جربنا كل شيء: تغيير أنواع الطعام، فبعدما ازداد سعر الفول انتقلنا إلى العدس، وإغراق الطعام بالتوابل لنشعر بأي طعم، ولكن سرعان ما ارتفع سعر العدس. جربنا أن نخلط أرخص أنواع الحبوب ونغليها في الماء، ونغمس الخبز في الحساء، ولكن الغلاء قد طال كل شيء. أصبح خروج ابني -حفظه الله- يوميًّا من العزبة لمكان عمله يُكلِّفه

الكثير. حاول مرارًا وتكرارًا البحث عن عمل في موقع البناء الجديد المجاور للعزبة بلا جدوى، فقد تهافت سكان العزبة على العمل فيه بأي مقابل؛ لأن الانتقالات صارت مُكلِّفة بصورة لا يمكن للكثيرين تحملها. يا ألله على تغيرات الزمن! في شبابي لم نواجه هذا الزحام، ولا كنا نقضي تلك الساعات الطويلة في المواصلات. يسير ابني يوميًّا أكثر من ثلاثة كيلو مترات ذهابًا، وأخرى إيابًا، بالإضافة إلى ثلاث مواصلات متتابعة. زوجته -فليعنها الله- يمكنها بالكاد إنهاء أعمال المنزل، فكل يوم يُضاف إليها عبء جديد. تقوم بالغسيل وإعداد الطعام والكي وإصلاح كل ما يتهاوى يوميًّا في تلك الشقة الخربة، واختراع أصناف رخيصة من الطعام، بالإضافة إلى هموم الطفلين. بحثتْ كثيرًا عن عمل ثابت، ولكن بلا جدوى. قالت لي مرة: إن عدم قدرتي على القراءة والكتابة منع عنِّي أعمالًا كثيرة. بين الحين والآخر تنجح في الاتفاق على تنظيف شقة ما أو تحاول معاونة أحد معارفها في بيع بعض الخضر والفاكهة. أعمال قصيرة وغير دائمة. ليسامحني الله، لكني أظن أن مظهرها ورائحتها لا يشجعان الكثيرين على توظيفها في أي عمل. أقول ذلك وأعلم أنها تبذل قصارى جهدها. رغم كل شيء ينعم الطفلان ببعض لحظات البهجة. إنهما قادران على الحياة داخل عالم آخر مبارك، يحفزه خيالهما الخصب الذي لا أعرف له مصدرًا سوى حنان الله سبحانه وتعالى. كل يوم أفكر في بيع الإسورتين، خاصة أني لم أعد قادرة على المساعدة في شؤون المنزل بشيء. أعرف أني عبء على ابني وزوجته، ولكن إلى أين يمكنني أن أذهب؟

لم أعد أتناول سوى وجبة واحدة تقريبًا وكوبًا من الشاي. صحيح أن زوجته تدعوني دائمًا لتناول المزيد لكني أعرف أنه ما من مزيد. نسيت طعم الفاكهة منذ أعوام، فلم نعد قادرين على شرائها. أدعو الله قبل النوم أن يغير هذه الأوضاع. عشت عمري وانقضى ما لي، ولكن تُرى ماذا سوف يلحق بهذين الطفلين؟ أنظر إلى وجه ابني المتعب كل يوم ويتمزق قلبي مع شعوري بقلة الحيلة، ولكن الله على كل شيء قدير. يكفي أن لدينا سقفًا نحتمي به، ورغم كل شيء لا تزال زوجته شديدة الإخلاص، ولكن العاطفة قد نضبت تمامًا. لا أذكر متى لاحظت آخر مرة اقترابه منها. اخشوشن شَعرها، وفقدتْ جمالها، ولم تعد تتزين تقريبًا. كما لو أنهما أخوان! لم يعودا يلاطفان الطفلين، وأقصى ما يمكنهما فعله هو عدم الالتفات إليهما وتحمل إزعاجهما ولهوهما دون تكدير صفوهما. الزمن يتغير، والناس كذلك. رغم الفقر الذي طالني وأنا شابة، لكن الحياة لم تكن بتلك القسوة. الأمور تزداد صعوبة يوميًّا، لذا مع مرور كل تلك الأعوام لم يعد هناك مهرب من الجلافة. كنت أرقب من النافذة حوادثَ غريبةً، لو حدثت منذ فترة لاختلف رد الناس. بالأمس كان جارنا حسين يسير في الشارع ثم سقط عليه من أعلى خليط قذر لزج من النفايات. رفع رأسه إلى أعلى، ومسح وجهه بكم قميصه، وتمتم بكلمات غير مسموعة، وأكمل سيره. لم أعد أفهم الناس. أقول في نفسي إن امتلاك إسورتين من الذهب وسط كل ذلك الفقر يُعد نعمة حقيقية. لا أعرف كيف أمكنني الاحتفاظ بهما رغم كل ما عانيناه! حمدًا له على ذلك. كنت أُمنِّي نفسي بأني سأترك لابني

عند موتي ما يجعله يتذكرني دائمًا بالخير. صحتي تسوء والليل عذاب حقيقي مع عدم قدرتي على التنفس بسهولة، وشعوري بسوائل تهبط من الأنف إلى الحلق، وسعال شديد بالإضافة إلى آلام في عظامي، وحين ينامون تبدأ معاناتي. يعلو صوت تأوهاتي رغمًا عني، لكنهم لا يستيقظون. يغرقون في نومهم كالموتى. الليلة ليست كأي ليلة. شيء ثقيل جاثم على أنفاسي. كأن جسدي قد أصابه الشلل. أحاول تحريكه دون جدوى، لكن الأمر لا يبدو كأني قد فقدت القدرة على الحركة، بل شيء مختلف لا أستطيع فهمه. يدق قلبي بعنف. تذكرت: لم أخبر ابني هذه الليلة بأني غيَّرت مكان الإسورتين، فقد عاد متأخرًا وكنت قد نمت. ماذا لو أنها الليلة الأخيرة؟ الأعمار بيد الله، لكني أحاول أن أناديه دون جدوى. الصوت لا يخرج من فمي، وشيء يُكبِّل جسدي تمامًا. أتعرق بشدة، وتلتصق الثياب بظهري. كيف يمكنني أن أصمد على هذا الحال؟ أشعر باقتراب الموت. ساكنة في مكاني دون حركة أو صوت. أحاول النداء ثانية دون جدوى. الوقت يمر بطيئًا مُعذِّبًا إيَّايَ عذابًا لم أتخيله أبدًا. هل سأموت وتضيع كل عذابات أعوام الحرمان التي مكَّنتني من الحفاظ على الإسورتين من أجل ابني حفظه الله؟ عليَّ بالهدوء والاستعاذة بالله من ضعفي ومن الشيطان الرجيم الوسواس. أغمضت عينيَّ الدامعتين، ونشجت كثيرًا. يا رب! امنحني القوة كي أُخرج لهم الإسورتين قبل الموت. عونك يا مولانا الكريم! بدأ نفسي المتسارع في الهدوء تدريجيًّا وأغمضت عينيَّ والأمل يساورني في أن أفتحهما ثانية. أفقت ثانية على صوت غريب، وعندما فتحت عينيَّ كان

ضوء الشمس قويًّا. نظرت حولي، فلم أجد أحدًا في المنزل. استغرقت إذَنْ في النوم وذهب ابني لعمله والطفلان إلى مدرستهما، ولا بد أن زوجة ابني مضت لتقضي مهمة ما. عاد الصوت. يبدو كصوت قرقعة أو طقطقة، ولكن تلك المرة شعرت باهتزاز خفيف وأنا على فراشي. تمالكت نفسي وحاولت النهوض. لم أنجح في المرة الأولى. أغمضت عينيَّ وملأت خيالي بصورة ابني وأسرته واستجمعت كل ما لديَّ من قوة وبدأت النهوض، وأمدني الله بالقوة، وفور أن نهضت ارتعبت من صوت انفجار بعيد. اقتربت بقدر ما أمكنني من سرعة من النافذة وحينها لم أصدق عينيَّ: النيران مشتعلة على بعدٍ في عدة أبنية. حدَّقت في المنظر وسرعان ما اهتزت الأرض تحت قدميَّ بقوة؛ فتعثرت، وكان آخر ما لمحته من النافذة قبل سقوطي بناية بعيدة تميل بصورة مرعبة. سقطتُ، وسمعتُ صوت شيء يتمزق، ولكن تلك المرة كان في جسدي. ألم فظيع في ذراعي اليسرى. صرخت، ولكن صراخي تاه وسط صراخ الكثيرين. يا رب! ظلت الأرض تهتز أسفل جسدي بعنف. زحفت بآخر ما تبقى لديَّ من قوة إلى الأريكة المواجهة لي حتى أُخرج الإسورتين. اهتزت الأرض مجددًا بقوة تحت جسدي، ولكن تلك المرة كانت أشد عنفًا. بدأ رأسي يثقل بشدة؛ فأدركت أنه لم يتبقَّ لي سوى القليل. لا بد من الوصول إلى الإسورتين بأي ثمن، ولكن تُرى حتى إن وصلت إليهما، فهل سيتمكن ابني من الوصول في الوقت المناسب لانتزاعهما من يدي قبل أن يراهما شخص آخر؟ يا رب! بدأ الظلام يغشى عينيَّ... قارب الوقت على النفاد مني. أُكمل زحفي

البطيء، وأقترب من الأريكة تدريجيًّا. أصل أخيرًا. أمد يدي اليسرى وأصرخ من الألم لاستناد جسدي على ذراعي اليُسرى المصابة، ولكن تمسك يدي بهما أخيرًا. حمدًا لله أنتزعهما، وأتشبثت بهما بكل ما لديَّ من قوة. أصرخ منادية ابني والأرض تواصل اهتزازها. أصرخ وأبكي والأصوات من حولي قد اختلطت وأشعر بالخوف. الموت يقترب، ولا بد أن الجميع يغادرون البناية، أو ربما قد غادروها بالفعل. انفجار آخر قريب تلك المرة، واهتزت البناية بقوة أكبر. أواصل البكاء. يا رب! يا رب! يا رب! في صيحتي الثالثة يتهاوى باب الشقة من أمامي، وأجد ابني يدخل راكضًا في حالة مزرية. يرتمى عليَّ، فأمد إليه الإسورتين. أطلب منه أن يهرب بسرعة. لن يتمكن من إنقاذي، والأعمار بيد الله، وقبل أن أُكمل الجملة يُدوِّي انفجار آخر. يحملني بينما أصرخ من الألم ويتوجه صوب فتحة الباب. رأيت وليتني لم أرَ! انهارت أجزاء عديدة من السلم. يتوقف في مكانه ويبكي. يقول لي إنه يحبني. أسأله عن زوجته وأطفاله، يقول إن الأطفال مع زوجته بالأسفل، وإنه عندما عرف الخبر دفع كل ما معه لسائق أتى به مسرعًا. قلت له إنه يجب أن يتركني؛ فلا أمل في الخروج معًا، وإن لي ربًّا كريمًا قادرًا على كل شيء، ولن يصيبنا سوى ما كتبه لنا. أضع الإسورتين في جيبه وأردد كلمات الله تعالى في قرآنه العزيز، وأطلب منه أن يعفو عني. يزداد بُكاؤُهُ ويتشبث بي بمزيد من القوة، ويقول لي إننا سنخرج معًا. يطلب مني أن أغمض عيني، فلا سبيل سوى القفز من فوق ذلك الفراغ الكائن أمامنا عسى أن يصل بي إلى الدرجات المتبقية في الجهة

الأخرى. أتوسل إليه ثانية أن يتركني، لكنه يضع يَدَهُ فوق عيني فأطيعه وأغمض. أسمع دقات قلبه بوضوح وأشعر أن كل شيء قد هدأ من حولنا. ريح طيبة تربت على وجنتي، وأشعر بحركة غريبة ثم...

ثم لا شيء... لا شيء، أو كل شيء. في حقيقة الأمر كل ما يتحرك ويبدو لنا متحركًا كان موجودًا دائمًا وسيظل موجودًا. إن حياة هذه السيدة العجوز بأكملها، من الميلاد وحتى الموت، موجودة فعلًا، بغض النظر عن نقطة بداية أو نهاية متوهمة لها. الحدث الذي نظنه قد جرى لا يزال يجري وسيظل يجري دائمًا، وكل ما في الأمر أننا غير مؤهلين لرؤية الأمور في كليتها. إننا لا نرى سوى ما ينكشف لنا بقدر ما وُهِبنا من قوة، وربما في حياة أخرى أو في ظرف آخر سنتمكن من رؤية قلب الأحداث وحقيقتها، وحينها سنرى كل هذه الرواية في لحظة واحدة؛ إن كان من الممكن أن نسميها لحظة! إلى أن يحدث ذلك سنتابع سير الموجة بقدر ما نستطيع، وسنلاحظ ظهور مراد عبد العظيم في قلب الموجة المتداخلة. أسمعه يحكي بصوتي، فلا أعرف مَن الراوي... مَن أنا ومَن هو ومَن هم... موجات... موجات...

يقول مراد عبد العظيم: ظن الجيران الذين حضروا الموقف أني أبكي موت أبي، لكن الحقيقة أني كنت أبكي لعدم شعوري بالحزن عليه. لم أتصور أني سأكون في هذا الحال يوم وفاته، فرغم كل ما حدث كنت أنتظر لحظات حقيقية مؤلمة من شأنها أن تخلق بداخلي مشاعر قوية نحوه؛ تلك المشاعر التي كنت أفتقدها ولم أختبرها أبدًا.

في الأيام الأخيرة من مرضه، وحينما علمنا أنها مسألة وقت، كنت أتصور ذلك اليوم، وشعور بفرحة غريبة كامن في أعماقٍ سحيقةٍ في قلبي. ليست فرحة الشماتة، وإنما توهمتُ أني سأقترب منه ثانية، وأنه لا بد وأن يشعر بحقيقة ما فعله فيَّ طوال كل هذه الأعوام. أخي محمد لم يكن يحضر تقريبًا في الفترة الأخيرة. يقول: مشغول بشدة في العمل، وشؤون بيتي لا تنتهي أبدًا. رغم ذلك كانت الابتسامة ترتسم على وجه أبي الراقد على فراشه عند رؤيته، ورغم شدة الألم كان بإمكانه أن يُعبِّر لمحمد عن فرحته بقدومه. يعرف صوت أقدامه، فيصيح: «الباشمهندس أتى»، ولا تمر دقائق قليلة حتى ينصرف أخي، بينما يقول أبي: «أصيل والله!». انتشر الورم وراقبته وهو يموت تدريجيًّا. اكتشفت كيف يمكن أن يُحوِّل المرض إنسانًا إلى أشلاء. لم يعد علاج يجدي، واقتصر الأمر على جرعات متزايدة من المسكنات وأدوية الجدول. بدأ المخزون المالي يتلاشى سريعًا، وطالبتني أمي بالمشاركة في الأعباء. كنت قد احتفظت بمبلغ صغير من عملي الأخير كي أدفعه لقاء دورة تدريبية في الإنجليزية، بهدف أن أتيح لنفسي فرصًا أفضل في العمل، ولكن تلاشى كل شيء. راقبت نفاد المال وخروج الروح – إن كانت له روح – بصورة متلازمة تقريبًا، وانتهى الأمران في التوقيت ذاته. أصابته نوبة وعي مفاجئة قبل الموت، وبدت نظراته كما لو أنه يعرفني جيدًا بعد أن كان قد فقد قدرته على التعرف على مَن حوله، وأشار إليَّ بالاقتراب وناداني باسمي. دق قلبي دقات عنيفة واقتربت منه، وقلت في نفسي: اللحظة المنتظرة قد حانت. اقتربت

منه؛ فسمعته يهمس: «يا ابن الكلب! يا ابن الكلب!»، ابتعدت عنه وهو يكرر الكلمة آليًّا، وزاغت نظراته ثانية، وتحول السباب إلى همهمة غير واضحة، ثم أصوات اختناق ثم سكون تام، وعيناه تحملقان بهلع في نقطة بعيدة. هكذا كان يناديني قبل مرضه: «يا ابن الكلب!»، هذا هو الأمر الوحيد الذي تذكره، أو ربما لم يكن واعيًا وحدث كل شيء بشكل آلي، كما يرتجف ذيل البرص بعد أن يُفصل عن جسد صاحبه. هاتفت أخي محمد وأخبرته بالخبر؛ فأجابني بصوت محايد: «إنا لله وإنا إليه راجعون». أتى بعدها بعدة ساعات وأخرجني من الغرفة، وتولى ما يتعلق بغسل الجثمان وتكفينه. حينما انخرطت في البكاء، أدركت أني شديد البؤس بدرجة لا يمكن تصورها. إنها الليلة الأولى من دونه. مستلقٍ على فراشي في غرفة بمفردي، وأمي في الغرفة الأخرى. تتناهى إلى آذاني أصوات نحيبها الذي لم ينقطع. يبدو الصوت بعيدًا غامضًا كأني لا أعرفه. ابتسامة تعلو وجهي، ولا يمكنني إخفاؤها. شعور غريب بالراحة والاطمئنان، لكنه ليس شعورًا خالصًا؛ فالغضب يمازجه. أعرف الآن أني سأغمض عينيَّ مطمئنًا دون تخوُّف من أن يقتحم الغرفة كما كان يفعلها وأنا طفل صغير ليختطف مجلة «ميكي» من يديَّ، ويُمزِّقها أمام عينيَّ باستمتاع سادي. استغرق الأمر مني أعوامًا عديدة حتى يمكنني تفهم الحقيقة، وحتى اللحظة الأخيرة؛ لحظة موته، كنت غارقًا في أوهام مصطنعة حول قدسية تلك اللحظة وإمكانية انقلاب الوضع رأسًا على عقب في مواجهة الموت، ولكن كل ما نلته كان نداؤه المعتاد: «يا ابن الكلب!». حسنًا، انقضى كل

ذلك. انقضى فعلًا، فلم يكن لينقضي إلا بالموت؛ موتي أو موته. أمامي الآن حياة لا أدري كيف أبدؤها. أغلب من حولي يقولون إن الفرص منعدمة في حياة كريمة هنا، لكنهم لا يعرفون أن الفرص في الحياة ذاتها كانت منعدمة لولا هذا الموت! إنها حياة! حياة بأكملها رابضة أمامي على أعتاب موت. لا يهم أني لا أحوز سوى دبلوم تجاري، وأن كل هذه الأعوام قد ضاعت عبثًا، ولا أني بمفردي تمامًا، دون صديق، ولا تلك الرغبة الجنسية المحمومة لشاب قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره دون تجارب من أي نوع، عدا ممارسة ذاتية كئيبة أحاول الكف عنها مؤخرًا بلا فائدة... كل هذا لا يهمني، الأمر الوحيد الذي يهم الآن أن حياة ضائعة قد برزت فجأة إلى الوجود، وأمامي عدد لا نهائي من الاحتمالات والاختيارات. كانت عودة ما يطلقون عليه «خصوصية» أمرًا أشبه بالمعجزة. أمي صامتة كما كانت دومًا، والفارق الآن أن أحدًا لم يعد يأمرها بفعل هذا أو ذاك. أنظر إليها وأجزع من إهدار الحياة. عندما سألتها منذ أعوام عن سبب تمييزه الشديد في المعاملة بيني وبين أخي محمد، أخبرتني أنها عندما حملتْ بي أراد إجبارها على إجهاضي، فلم يخططا لإنجاب طفل آخر. لم تُضِفْ شيئًا. كأن ما قالته يفسر أي شيء! لا تتحدث هذه الآونة إلا عن زمان وأيام زمان، والحقيقة أني كلما تذكرت الماضي اشتعلت غضبًا. لا تراودني ذكرى واحدة جيدة عن المدرسة أو المدرسين. أتذكر بدقة كل ما فعلته من أجل أن أنعم بإتمام رسمة واحدة بالقلم الرصاص. لا أفهم ولا أتصور لماذا كانت المهمة مستحيلة بهذا الشكل؟ تقول لي:

«أبوك كان يريد أن ينصب اهتمامك كله على الدراسة ولا يريدك أن تُضيِّع وقتًا»، لكن هذه لم تكن الحقيقة، فحتى إبان العطلة الصيفية كانت رؤيته لي أرسم أو أخطط على ورقة بمثابة رؤيته لسارق أثناء عملية السرقة! وكلما ازداد هجومه عليَّ، ازدادت مقاومتي. تحول الأمر بالنسبة إليَّ إلى معركة وجود. كنت أرسم في أغرب الأماكن، حتى تلك الصور والمناظر التي أراها أحيانًا مرسومة على الصحف التي يفرشونها على المائدة، كنت أحفظها جيدًا في ذهني لأرسمها فيما بعد؛ الأمر الذي انتبه إليه أبي وصار يُجبرني على تناول الطعام سريعًا، وربما هذا هو السبب في مشاكل الهضم التي أعاني منها الآن. في ذهابي وإيابي إلى المدرسة، كنت أقف بشكل متكرر عند باعة الجرائد لأحدق في أغلفة الكتب والمجلات. لا يمكنني تفسير الأمر، ولا أعرف كيف أحببت الرسم تحديدًا، لكن المؤكد أنني كنت في حالة ظمأ شديد إلى تصوير عالم آخر على الورق، وأدركت من البداية أن تعلم ذلك يتطلب مني في البداية تعلم المحاكاة، لذا كنت أبحث دائمًا عن كل ما يمكنني أن أحاكيه من رسومات ومناظر في كتب ومجلات. كنت متوسط المستوى دراسيًّا، بل كنت متفوقًا إلى حد ما، وعندما كنت في الشهادة الإعدادية اجتاز محمد امتحانات الثانوية العامة وحصل على مجموع جيد يُمكِّنه من دخول كلية الهندسة، لكنه لم يُقبل إلا في هندسة الإسكندرية. أدرك أبي أن سفر وإقامة وتعليم محمد سوف يكلِّفه الكثير في الوقت الذي كانت أحوالنا المادية تسوء أكثر فأكثر. لم يستغرق وقتًا طويلًا في التفكير. قرر إلحاق محمد

بهندسة الإسكندرية، ومنعني من الالتحاق بالثانوية العامة، وألحقني بمدرسة تجارية. كان للأمر وقع الصدمة عليَّ. التحق كل أصدقائي بالطبع بالثانوية العامة. أحدهم يغير مجريات حياتك كلها بتصرف ساذج دون أن يأبه لشيء. أما أمي فصمتت. إن كانت لهذه الأعوام الثلاثة في المدرسة التجارية أي فائدة تُذكر، فهي تَكشُّف وعيي بذاتي. كان اختلافي عن بقية الطلبة واضحًا منذ اللحظة الأولى. صحيح أن مستوى أسرتي المادي لم يكن أفضل، لكن فارق الشخصية كان مُلفتًا للنظر بقوة. كانوا يعاملونني معاملتهم لغريبي الأطوار الذين يُكنُّون لهم احترامًا مشوبًا بالخوف أحيانًا والسخرية في أحيان أخرى. كنت ألتقط هذه الدرجة الطفيفة من الخوف ولا أفهم سببها لكني أجدت التعامل معها جيدًا. منذ بدء اليوم الدراسي أتوجه إلى الفصل مباشرة، لا أحمل معي سوى قلم رصاص وممحاة ودفتر أوراق بيضاء. أستغرق في الرسم دون وعي بما يحدث حولي حتى تحين الفرصة وأهرب. جربت القفز من كافة الأماكن حتى صرت خبيرًا في الهروب؛ خاصة في العام الأخير. كانت المشاجرات أمرًا مألوفًا في المدرسة، فكل أسبوع لا بد من مشاجرة ضخمة يشترك فيها عدد كبير من الطلبة، ويتدخل المدرسون بالعصي الضخمة المقتلَعة من الأشجار المقطوعة، لكني كنت أراقب كل ما يحدث كأنه في عالم آخر. كل ما أفكر فيه: متى سأهرب؟ كم ساعة سوف تُتاح لي قبل وصول أبي من العمل وشعوري بالاختناق اليومي؟ في العام الأول تحديدًا افتتح أحدهم مشغلًا فنيًّا للرسم على أوراق البردي، وكان المشغل مِلكًا لصاحب

البازار نفسه الذي يبيع هذه الأوراق للسائحين. كنت قد بدأت أتخلَّى عن القلم الرصاص وأُجرِّب بعض الألوان الجواش، ولكن على استحياء شديد لعدة أسباب؛ أولها تكلفة الألوان التي لم تكن بحوزتي أغلب الوقت، وثانيها أني حتى مرحلة قريبة كنت مكتفيًا بعالم الرسم بالرصاص، واكتشاف طرق جديدة للرسم والمحاكاة. جربت مثلًا طريقة المربعات، حيث أُقسِّم الرسمة المراد محاكاتها إلى مربعات متساوية، وأُقسِّم ورقتي لنفس عدد المربعات بأبعاد مختلفة، ويصير الأمر أسهل قليلًا لنقل محتوى كل مربع في المربع الموازي له مع تغيير الأبعاد، وبذلك تعلمت الكثير عن الأبعاد والتكبير والتصغير. أفادني التصغير جدًّا في محاكاة ما أشاء من رسومات على مقاسات أصغر؛ لأني كنت محكومًا بالرسم في دفتر صغير يسهل التحكم فيه وإخفاؤه ونقله. انشغلتُ بعدها بفترة بما يتعلق بالظلال والضوء، وأحرزت بقلمي الرصاص تقدمًا واضحًا في غضون فترة زمنية قصيرة نسبيًّا. في المرة الأولى التي لمحت فيها المشغل الذي افتتحوه قريبًا حدَّقت في بعض أوراق البردي المعلقة على جدرانه. لم أجرب التلوين من قبل، وبالتالي أمعنت النظر في الألوان. للوهلة الأولى جذبتْ عيني كما ينجذب الجائع لطعام يشم رائحته عن بعد. منذ تلك اللحظة بدأت أفكر في التلوين. كنت أحلق في عالم آخر فعلًا. أخبئ رسوماتي في عدة مخابئ في المنزل. يذهب أبي إلى عمله صباحًا قبل نزولي؛ فأخرج دفتر رسوماتي بيسر ولا أحمل شيئًا سواه، وأذهب إلى الفصل مباشرة. أستغرق في الرسم عدة ساعات حتى تحين فرصة الهروب. أقفز،

وأعود إلى المنزل فتُتاح لي عدة ساعات قبل وصول أبي، وبعدما يصل نتناول الغداء وينام هو بعض الوقت فأرسم مجددًا، وقبل أن يستيقظ أكون قد خرجت لأتسكع في أي مكان، ولا أعود إلا في حدود الثامنة أو التاسعة، فلا يتبقى من الوقت سوى القليل أضطر لقتله بأي طريقة. في عامي الأخير في المدرسة، وقبل أن ينتهي بعدة أشهر تقدمت إلى العمل بالمشغل، وقبلني صاحبه. أكثر ما استفدته في تلك الفترة الأولى من العمل في المشغل هو احتكاكي بآخرين مشغولين بالرسم والتلوين بدرجات متفاوتة. كنت أشعر بوحدة مفزعة، حيث إن طبيعة اهتمامي بالرسم جعلتني أتوارى أكثر فأكثر. لا يتعلق الأمر وحسب بقلة مَن يهتمون به، بل إلى السخرية التي تتحول بشكل مباشر إلى اعتداء على مَن يمارسونه. لم يمنعني انطوائي الشديد داخل المدرسة من رسم حدود فاصلة بيني وبين العالم الخارجي لدرء حملات الاعتداء غير المبررة. في أحد الأيام كنت منهمكًا جدًّا في الرسم داخل الفصل، ووجدت فجأةً أحدهم قد انتزع الورقة من دفتري؛ فتمزقتْ إثر الحركة الفجائية. لم أدرِ بنفسي إلا وقد أمسكت بخناقه كالمجنون متحاشيًا ضرباته العشوائية، ثم وجهت ضربة مؤلمة إلى بطنه وانتزعت بقايا الورقة من يده وابتعدت عنه وقد نظرت إليهم جميعًا مشيرًا إلى الورقة بإيماءة تهديد لكل مَن يجرؤ على تكرار هذه الفعلة. الأمر الوحيد الذي أوقفهم عن إلحاق الأذى بي في تلك اللحظة هي المفاجأة؛ شخص منطوٍ غارق في صمته ورسوماته، ثم يبدر منه هذا العنف المفاجئ! في تلك الفترة أخبرتهم في المنزل عن نيتي بالعمل في المشغل، ووضّحت

لهم أن ذلك سيوفر لي مبلغًا من المال يجعلني أتوقف عن أخذ أي مال منهم، وبالتالي يمكنهم توفيره لمصاريف أخي بالإسكندرية. وافق أبي على الفور رغم كراهيته الشديدة للرسم، لكن إغراء توفير أي مبلغ من المال لصالح قرة عينه كان أكبر. منذ تلك اللحظة نعمت بالحرية في الانخراط في الرسم داخل الغرفة، وتحولت إلى التلوين. عرفت من بعض العاملين في المشغل طريقة لصنع بعض ألوان الجواش بتكلفة أقل من شراء اللون جاهز من السوق. كنت أذهب إلى محلات الحدايد والبويات وأشتري الأكاسيد بالألوان المتاحة، ثم أشتري بعض الصمغ العربي، وأنقعه في الماء لمدة، ثم أخلطه ببودرة الأكسيد بمقدار وطريقة محددين لصنع عجينة اللون، وكان الناتج قريبًا جدًّا من لون الجواش المتاح فعلًا في السوق، وبالتالي أُوفِّر بعض التكلفة. في المشغل كان العمل روتينيًّا إلى حد قاتل، ورغم ذلك تعلمت الكثير من احتكاكي بغيري. كان صاحب المشغل يطبع مخططًا خارجيًّا للرسمة (شبلونة)، ويتولى كل واحد منا تلوين جزء منها، ونُلوِّن أعدادًا كبيرة من كل رسمة. سرعان ما مللت من تكرار تلوين الجزء ذاته باللون ذاته، وشعرت أن هذه الآلية بقدر ما علَّمتني في البداية، ستقتلني تدريجيًّا. لجأت إلى نوعية من الرسم على البردي لا يمكن إتمامها بالشبلونة، بل تعتمد على الرسم الحر من حيث طبيعة امتزاج الألوان وعدم وجود حدود فاصلة واضحة للرسمة. في هذه الفترة تعلمت الكثير. كنت دائم الاطلاع على الكتب والمجلات بقدر ما يُتيح لي المال. أنظر إلى الصور وأحاول تعلم تقنيات جديدة، وأستغرق في

تعلم كل تقنية جديدة عددًا كبيرًا من الرسومات على أوراق البردي. كنت أتقاضى تقريبًا على الورقة حينها عشرة جنيهات، بينما كانت تُباع في البازار بأكثر من مائتي وخمسين جنيهًا. هكذا كانت أيامي الأخيرة بالمدرسة التجارية. بعدما أنهيت الدبلوم عملت بإحدى شركات الغاز. كان العمل شاقًا جدًّا، بالإضافة إلى بُعد أماكن العمل أحيانًا وتغيرها المستمر؛ فكل عدة أشهر يبدأ العمل في منطقة حتى يتم الانتهاء من توصيل الغاز فننتقل إلى منطقة أخرى. ازداد وعيي باختلافي عن الآخرين في العمل بصورة مرعبة. كنت وحيدًا تمامًا، ولم أستطع أن أحظى بصداقات من المدرسة التجارية، ولم تكن علاقتي بأخي محمد على ما يرام، وفي العمل شعرت أني في وسط لا يلائمني بتاتًا. لا أستطيع التحدث معهم تقريبًا. لم تكن لديَّ أي خبرات وقتها سوى ما يتعلق بالرسم؛ الأمر الغائب تمامًا عن أذهانهم، بل وربما يمكن أن يثير سخريتهم. أحاديثهم إما عن الجنس وإما العمل وإما الكرة وحسب. بالإضافة إلى ذلك، تميزت أحاديثهم بعدوانية مفزعة. شعرتُ بالحصار. كنت أتأمل وجوههم؛ فأشعر أن كلًّا منهم يوشك على ارتكاب جريمة قتل قريبًا. عصبيتهم وحركاتهم العنيفة من جهة، وأعينهم الميتة الجامدة من جهة أخرى. وحدة مفزعة مؤرقة. ورغم الجهد البدني الشديد وإرهاق المواصلات لم أكن أستطيع النوم جيدًا. ضغط جنسي يصاحب خيالاتي، وانعدم الحوار بيني وبين كل مَن في المنزل تمامًا. لم يعد أبي يتحدث معي تقريبًا إلا عندما يريدني أن أشارك في شيء ما من مصاريف المنزل. كان يبتدع موضوعات

للإنفاق؛ أغلبها غير حقيقي، حتى يستطيع أن يمد أخي محمد بمصروفات الدراسة والإقامة في الإسكندرية في عامه الأخير. كنت أعلم ذلك، وأحيانًا ما كنت أتشاجر معه، وأحيانًا أعطيه صامتًا لأوفر طاقتي المحدودة. بالطبع قلَّ الوقت المتاح للرسم، خاصة مع الإنهاك الذي كان يجعلني أسقط في النوم أحيانًا، ممسكًا بالقلم أو الريشة. الأمر الوحيد الجيد أني صرتُ بمفردي في الغرفة، لكني شعرتُ أني على وشك الانفجار. لا بد من فعل شيء ما، لا بد من الخروج من تلك الدائرة القاتلة. لا يمكن أن تستمر حياتي على هذا المنوال.

* * * *

في إحدى بقاع العزبة، وتحت الأنقاض، لا تزال الأصوات تعلو، لا يسعها سوى ذلك. تتداخل الذكريات والأحلام والحكايات، ونحاول تلمس ظلال الحقيقة عبر هذا الضجيج. يقول مجهول:

يظن أن تلك النجوم الباهتة التي يعلقها على كتفيه تجعله أفضل مني! لا يمكنهم القيام بشيء دوننا. نحن مَن نقوم بالأعمال الحقيقية، بينما هم مَن ينعمون بالمكافآت والصلاحيات. إنها قوانين الدنيا العمياء... ملعون أبوها! استدعاء سريع وسري كهذا لا بد أن تكون خلفه عملية قذرة. أعرف ذلك جيدًا، فخبرة عشرين عامًا في العمل كأمين شرطة ليست هينةً. دخلنا مكتب النقيب. يمكنه قراءة نظرتي الساخرة لكني لم أعطه الفرصة ليمسك خطأً واحدًا عليَّ، بل على العكس،

أتواجد دائمًا في كل مناسبة يلوح فيها عجزه أو جهله بمقتضيات سير الأمور، وأريه الطريق بسخرية مُقنعة بالولاء والإخلاص. لا بد أن تصله الرسالة جيدًا: من دوني لن يستطيع فعل شيء، وعليه آجلًا أو عاجلًا أن يضمني إلى صفوته الخاصة كما كان الأمر مع النقيب السابق الذي تم نقله. مرت عدة أشهر، حُرمت فيها من كل ما كنت أربحه وأُقسِّمه مع النقيب السابق. لا يمكن للبلد أن تمضي قدمًا دون هذه التوازنات والاتفاقات التي نقوم بها، وإن كنا نتعرض للخطر يوميًّا؛ فلا بد إذَنْ أن يكون هناك مقابل. إننا لا نتقاضى سوى الفتات، لذا ما أفعله مبرر تمامًا. إن عيَّن أحدُهم حارسًا خاصًّا له لا بد أن يدفع له، ونحن حراس هذا البلد بأكملها. إن أطلقنا يدنا ستتحول إلى جحيم مستعر. دخلت مكتبه ووجدت ضابطًا آخر لا أعرفه وثلاثة من زملائي. أخرج الضابط الآخر علبة سجائره ووزَّع علينا جميعًا. أشعلنا السجائر وتحدث معنا بتبسط غير مألوف. وجمنا بينما نستمع إلى التفاصيل، ولم ينطق أحد. الأوامر تلك المرة صادرة من أعلى، وجميعنا في القارب الذي يمكن أن يغرق في أي وقت. بعد أسبوع كنت بصحبة المجموعة ذاتها في سيارة أحدهم. الساعة الثانية صباحًا. سيجارة حشيش وحبة ترامادول. تفحصنا حالة السلاح. كنا نرتدي ثيابًا مدنية بالطبع. خرجنا من السيارة وتوجهنا بسرعة نحو مدخل العمارة. فتح أحد الضابطين باب العمارة بمفتاح بحوزته، وصعدنا إلى الطابق الثاني. تقدم الضابط الآخر وأشعل كشاف هاتفه المحمول وتأكد من رقم الشقة. أومأ لنا بالإيجاب. كان بصحبتنا أحد اللصوص لتولي عملية معالجة قفل الباب. بدأ الرجل

عمله بهدوء، ولكن الوقت طال دون أن ينجح. قال للضابط: لا أعرف كيفية معالجة هذا النوع تحديدًا. فسبَّه الأخير، ولكن الضابط الآخر أشار إليه بالصمت، وأخرج مسدسه وأشار لنا كي نستعد. أطلق عدة رصاصات دوَّى صوتها بقوة شديدة وسط هدوء المكان في تلك الساعة، وتكاتلنا على الباب حتى انفتح. دخلنا نحن الأمناء أولًا وأسلحتنا مشهرة. سمعت صوت أحدهم يصرخ: «مَن أنتم؟»، وسمعت صوت رصاص أُطلق من جانبنا وتهاوى الرجل؛ فتعالى صراخ آخر. وصلنا إلى كشاف النور وأشعلناه، ولمحت خيال أحدهم يهرب من عمق الشقة إلى إحدى الغرف. ركضت ودخلت خلفه وشعرت باحتكاك سكين حادة بذراعي. تأوهت بقوة ووجَّهت مسدسي لكن الآخر كان قد أسقطه، ولم تمر ثانية وسط عراكنا حتى أتي من خلفي أمين آخر وهدَّده بالمسدس فاستسلم. تمكنت أخيرًا من رؤية وجهه حينما أضأنا المكان. كان صبيًّا. كان في حالة انهيار كامل، وسرعان ما دخل الضابطان خلفنا وفتشا المكان ثم دخلا المطبخ وقالا لنا: صفُّوه! ترددنا جميعًا. إنه صبي وقد استسلم فعلًا. كرر أحد الضابطين الأمر، وكنت قد التقطت مسدسي. أطلقنا جميعًا الرصاص. تهاوى الصبي وسالت دماؤه. تسمرت في مكاني للحظة، ثم جرَّني أحدهم للخارج، وسقطتُ على أحد مقاعد الصالة، وناولني أحد الأمناء سيجارة ملفوفة أخرى دخنتها. كان الجيران بالطبع قد تجمعوا عند باب الشقة على إثر أصوات الرصاص. منعناهم من الدخول بعد أن كشفنا عن هويتنا الشرطية. مكثنا في أماكننا حتى أتت قوة أخرى واستلمت المكان

وفارقناه. عدت إلى منزلي بالعزبة بعد جولة طويلة على الكورنيش بلا هدف. حل الصباح ومر الوقت سريعًا. متى أفارق هذا المكان الكريه؟ كلما ادخرت مبلغًا، أجد قيمته قد تضاءلت بمرور الوقت. الأسعار تزداد بسرعة لا يمكنني مجاراتها. في الفترة الأخيرة عملت كل ما يُعمل لتقليص تلك الفجوة وادخار مبلغ يخرجني من ذلك المكان القذر. لكني لم أكن أعرف أني سأعاني في النوم بهذه الطريقة. في البداية بدأ الأرق يصيبني بسبب كثرة التفكير المستمرة في كل الفرص الممكنة التي يمكنني بها جلب أي كمية ممكنة من المال، وكل فرصة تنطوي على مخاطرة ينبغي الحذر من التفافها حولك وكتم أنفاسك. تعددت الأطراف، حتى صار التحكم في الأمور شديد الصعوبة. لجأت إلى زيادة جرعات الترامادول، ولكن في الفترة الأخيرة ازدادت الجرعات بشدة. إن أفلتت الأمور من يدي، سأجد السكاكين تنهال على جسدي. يود الجميع صنع بطولة زائفة، رغم أنهم جميعًا أولاد كلب. تلك الليلة لم أنمْ أيضًا، لكنَّ وجه ذلك الفتى المقتول لم يفارقني. القتل مختلف، يقينًا مختلف! رغم طول عملي في الشرطة، لكنه القتل الأول. قرب المسافة أيضًا جعل أشلاء الرأس تنفجر في وجوهنا لضيق مساحة المطبخ الذي تلطخت حوائطه جميعًا بالدماء وبقايا المخ. لكن شيئًا لن يقف في طريقي كي أخرج من هذه الخرابة المدعوة «أبو دقة». وماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ أوامر رسمية تلك المرة. عرفت بعد ذلك بادعاءات البعض أن القتيلين ليسا لهما علاقة بأي تنظيم إرهابي كما ذكر بيان الداخلية. كل هذا لا يهمني. إنها أوامر، وليست مسؤوليتي.

مثل هذه المواقف هي التي تصعد بأحدهم وتطيح بآخر. إنها تثبت قدرتك على تنفيذ أصعب المهمات، وحينها تثبت جدارتك. أبصق عند دخولي وخروجي من تلك العزبة الحقيرة. تتواصل أعمال البناء بجانبنا دون توقف. ماذا يفعلون؟ يودون بناء حي من أحياء السادة اللصوص بجوار تلك العزبة الحقيرة؟ أمر غريب! لا بد أن إزالة العزبة صار أمرًا لا مناص منه، إنها مسألة وقت. أنا في طريق عودتي الآن. دخلتُ العزبة من الناحية الغربية. هد النعاس جسدي. ليلة كاملة دون نوم. تحقيقات حول الحادث ونوبة عمل طويلة وترتيب كل ما يتناثر حولي من مشاكل. الشمس في مواجهتي، ولا أستطيع الرؤية جيدًا. ما إن سرت دقيقة واحدة، حتى شعرت بالأرض تهتز تحت قدميَّ. ظننت أن هذا من أثر النعاس، ولكن سرعان ما تكرر الأمر ثانية. توقفت لبرهة، وفجأةً سمعت دوي انفجار مرعب أطاح بي لأسقط بعنف. تعالى الصراخ ورأيت بنايتين تتمايلان بدرجة مفزعة حتى سقطتا. ساد الهرج والمرج. تمالكت نفسي ونهضت على قدميَّ وركضت. انفجار آخر قريب. إلى أين أركض؟ أأدخل إلى الجحيم بقدميَّ؟ المياه تتفجر من تحت قدميَّ والبنايات تنهار والصراخ يتواصل. لا بد من الهرب فورًا. ألتفت لأركض صوب الاتجاه المعاكس هربًا من هذا الجحيم، لكني سمعت أصواتًا تصرخ منادية باسمي. التفتُّ؛ فوجدت مجموعة تحمل أسلحة هراوات وجنازير تطاردني. آآه... إنه الجحيم. أخرجت مسدسي وأخذت أركض. أعرف ماذا يريدون. اعتديت على العشرات هنا وسحبت من جيوبهم الكثير، وقد أتى يوم الحساب، ولكن لا؛ لن

أكون كبشًا لهذا الدمار الماحق. واصلت ركضي، وشعرت بصدمة موجعة أصابت ظهري. انحنيت من فرط الألم، والتفت. صوَّبت مسدسي صوب أحدهم وأطلقت. سقط. واصلت ركضي ووجدتهم يخرجون لي من كل مكان، والأبنية تتمايل كما لو أنها من ورقٍ. جحيم لا يمكن تصوره. توقفت للحظة من فرط الإنهاك واختبأت خلف حائط. مرَّ بعض مطارديَّ دون أن يفطنوا لاختبائي. خرجت بعدها بلحظات لأواصل طريقي فوجدت أحدهم أمامي. كان في انتظاري، وسرعان ما ضربني بسكينه في ذراعي، فسقط المسدس. أخرجت مطواتي باليد اليسرى. سكينه أمام مطواتي. لن أسقط ضحية للرعاع. اندفع كلانا وفي لحظة واحدة أظلم كل شيء. آلام وظلام. صراخ وعويل. أصداء كابوسية بعيدة. أهو الجحيم؟ أين أنا؟ حاولت أن أتحرك فأدركت أني حبيس بقعة بالكاد تحوي جسدي. آلام رهيبة. كيف سقطتُ في هذ البقعة الجهنمية. أكاد أجن من أصوات الصراخ التي لا تتوقف. تأتيني من أعلى وأسفل. انهار كل شيء وصرتُ حبيس نقطة مجهولة وسط حطام يُشكِّل طبقات متراكمة. كانت آلامي هائلة، فلا بد أني أُصبت بعدة كسور. ليست لي طاقة للتحرك يمينًا أو يسارًا. تغزو آذاني أصوات الصراخ المرعب مجددًا، ولا أرى وسط هذه الظلمة الحالكة سوى ثقوب رفيعة من الضوء متناثرة هنا وهناك. حاولت أن أتحرك أكثر من مرة بلا جدوى. كتل متينة. ترتعش الثقوب الرفيعة، كأن شيئًا يسدها ويكشفها سريعًا لمرات عديدة متعاقبة فتُزيد من جنوني. أيكون موتي قد حان؟ كيف يمكن أن أصبح بهذا العجز؟ لن يجدي هنا التهديد ولا

الرشوة. لا شيء أمامي لأفعله وسط حوائط خرسانية. سائل يتسلل من فوق رأسي يغطي وجهي وله رائحة عطنة. أهذه الإجابة؟ أحدهم يتبول فوق رأسي؟! اللعنة! اللعنة على الأوباش! اللعنة على ذلك الجحيم! فعلت كل ما يمكن فعله، ألم يكن الخلاص من جحيم أبو دقة هو الأمر الوحيد الذي يمكن أن يسعى إليه إنسان مثلي؟ وماذا كان بالإمكان أن أفعل؟ آآه لو يكف هذا الصراخ المرعب! قعقعة واهتزاز وطنين وعويل وحرارة مفزعة، وآلام لم أعد أدري لها مصدرًا. اللعنة على تلك اللعنة! ملعون أبوها! إن خرجت إلى هنا، سأخرج مسدسي وأصوبه إلى الأوباش والأوغاد جميعًا. نعم، هذا هو الأمر الوحيد الواجب. نعم، هذا هو الأمـ... هذا هو... هذا هـ... هذا... هذ... ه....

* * * *

موجة الغضب الحارق تنطلق من كيان دقيق لا يُرى بالعين المجردة وسط كون فسيح لا ندري له حدودًا. تلك الموجة الحارقة يزول أثرها بالارتفاع مسافة قليلة، ويبدو كل ذلك من منظور مرتفع بعض الشيء كحركة حشرات تحتاج العين إلى ميكروسكوب لرؤيتها. نرتفع أكثر، فيزول كل شيء ونغوص في صمت تام، أو ربما هو ضجيج شديد اعتدنا صوته فظنناه صمتًا. لا يحتاج إدراك ذلك إلى الارتفاع فعلًا في مركبة فضائية أو ما شابه، ولكن يكفي تسكين الحواس بقدر ما نستطيع والتركيز الشديد في لا شيء. رغم أننا قد نحقق ذلك للحظات ثمينة جدًّا، لكننا نعود لنغوص وسط هذه الموجات ونتابع الحكاية.

يعود صوت نظير ثابت مرتعشًا قائلًا:

منذ أيام كنت أتحدث مع دميانة بخصوص رغبتي في إرسال أخيها الصايع إلى الخليج. أخبرتني أنها ستقوم بمحاولة. سألتها: كيف؟ قالت: إن شقيق القس أبرام قس هو الآخر ومكان خدمته بالكويت. ستحاول أن تفعل شيئًا. اليوم زفاف ابنة أخي. مع هذا الكرش لم تعد أي من البدلات القديمة تلائمني سوى واحدة. أرتديها وأحكم رابطة العنق. أنظر في المرآة، لم تتبقَّ لي سوى شعيرات قليلة على الرأس لحفظ ماء الوجه! أتذكر حديث أخي معي منذ أسبوعين؛ فأشعر باختناق شديد. لم يكن من السهل عليه أن يطلب مني أن أقرضه، ولم يكن من السهل عليَّ أن أرفض. أذهلني رد فعلي السريع حينما قلت له إني لا أحتكم تلك الفترة على قرش. كان من الممكن أن يُذكِّرني بما فعله معي منذ أعوام طويلة، وما تعرض له من إذلال وفقر حتى يضمن لي هذه الوظيفة وهذا الزواج، لكنه لم يكن في حاجة إلى ذلك. نظراته كشفت عن كل شيء. لم أتصل به من يومها، وأفكر الآن في كيفية إصلاح ما حدث. أسير في طريقي إلى الكنيسة لحضور زفاف ابنته، لا أرى شيئًا من حولي على الإطلاق سوى نظرات عينيه في لحظة رفضي. أشعر فجأة بإجهاد شديد وأتوقف قليلًا. أسمع صوت الهاتف يرن. أخرجه وإذا هي رسالة: «هل تريد أن تربح مليونًا؟»، لا أكمل قراءتها وأحدق في الفراغ الكائن أمامي. لا أعرف كم مر من الوقت على ذلك، لكني أفقت على أحدهم يهز ذراعي. رأيت رجلًا واقفًا أمامي

يقول: «كيف حالك يا باشمهندس؟»، أومأت برأسي ورددت كلمات تقليدية لا أذكرها. ظل الرجل يتحدث لدقيقة عن مصاعب ومصاريف البناء، وقبل أن أفهم شيئًا وجدته يدس شيئًا في جيبي، وفي اللحظة ذاتها أدركت أني واقف أمام بناية تحت الإنشاء. وضعت يدي سريعًا في جيبي، وأدركت من ملامسة الشيء أنه مال. قبل أن أنطق بشيء كان الرجل قد انصرف وهو يلوِّح لي بيده بالتحية. أخرجت المال: خمس ورقات من فئة مائة جنيه! تذكرت كلمة «باشمهندس» وفهمت الأمر. هذا الوجه ليس غريبًا عني. لقد أتى إلى بناية الحي أكثر من مرة وأتذكر أني رأيته هناك، ومع كلمة «باشمهندس» اتضح الأمر. لقد ظنني المهندس المسؤول بالحي، ومع توقفي أمام بنايته عَرَضًا ظن أني أريد حصتي لأتركه يكمل بنايته المخالفة في صمت. خمسمائة جنيه في لحظة! أيمكنني قبولها؟ في الواقع أنا لم أدِّع أني مهندس الحي، ولا أعرف كيف ظنني كذلك، ولكن تبقى الحقيقة أن في جيبي الآن خمسمائة جنيه. هل يجب أن أحتفظ بها أم أعيدها إليه؟ وماذا سيحدث عندما يكتشف الأمر؟ بينما أفكر في الأمر، وجدتني قد وصلت إلى الكنيسة بالفعل. رشمت علامة الصليب ودخلت. كانوا قد بدأوا الصلاة. أفقت لنفسي ثانية على نهاية الصلاة وتحركت وسط الجمع مدفوعًا بفرحة لا تقاوم. تقدمت إلى طابور المهنئين حتى وصلت إلى أخي وهنئته، وفي تلك اللحظة تحديدًا تذكرت أن بجيبي خمسمائة جنيه يمكنني أن أعطيها له تهنئة بالزفاف، ولكن قبل أن ينتهي تفكيري، كنت قد ابتعدت عن الطابور. ابتسامة لا تفارق وجهي وضربات قلب

سريعة. أُقلِّب عيني في الحضور بعشوائية، فتقع عيني على دميانة ابنتي. تعجبت؛ فقد أخبرتني بالأمس أنها لن تحضر الزفاف. لم تكن بالمنزل حينما خرجت، وكان من المفترض أنها بصحبة أمها في زيارة الأخيرة للطبيب الذي تصادف أن يكون موعده في نفس موعد الزفاف. أقترب ببطءٍ منها ولا أصدق أنها ارتدت هذه الثياب. من أين أتت بها ومتى اشترتها من الأساس؟ فستان قصير يعلو ركبتيها بصدر مفتوح. تتحرك بحيوية ومع كل حركة يلوح مفرق ثدييها. غضب ودهشة يعتملان بداخلي، وفي اقترابي أسمع صوت شاب يهمس بكلمة فاحشة عنها لزميله. أزداد غضبًا وأتمالك نفسي بصعوبة حتى لا أُفسد الزفاف. سأمسكها من يدها، وننصرف فورًا. قبل أن أصل إليها أجد أبونا أبرام يقترب منها ويجذبها من يدها بعيدًا عن صديقاتها ويهمس لها بشيء. يبتعدان معًا وأراهما يدخلان إلى مبنى الخدمات بالكنيسة. لا بد أنه سيوبخها. راقبت المنظر فوجدتها تتقدم وهو من خلفها. متى تعلمت أن تسير بهذه الطريقة، ومتى نضجتْ مفاتنها إلى هذه الدرجة؟ أشعر بالخجل من العودة معها بثيابها تلك. أخرج هاتفي وأتصل بها عدة مرات ولا تجيب. كتبت إليها رسالة أن تعود في سيارة أجرة. عدت إلى المنزل سيرًا وذهني مشتت بين أفكار عدة. ملمس المال في جيبي يبعث في جسدي دفئًا. هل يمكن أن أفعلها حقًّا؟ كم يلزمني من وقت لأمر بالبناية ذاتها مجددًا؟ كل ما عليَّ فعله هو أن أختفي تمامًا من أمامه لو أتى إلى الحي، ثم العودة كل فترة والاكتفاء بالوقوف أمام البناية، وربما إخراج الهاتف. لست مسؤولًا عن سوء فهمه... نعم، لست

مسؤولًا عن ذلك... آآه يا عذراء! آآه يا مارجرجس! كل الشكر! أصل إلى المنزل وأنتظر وصول دميانة. أمها لم تعد بعد من عند الطبيب، والصبي صايع كعادته. مرت أعوام على تلك الليلة البائسة التي عرفت فيها أن مجموعه بالثانوية العامة لن يؤهله لدخول أي كلية مقبولة، ومنذ ذلك الحين وهو صايع خارج المنزل. في البداية كانت مشاجراتنا لا تنتهي، أما الآن لم أعد أهتم. قمت بدوري تجاهه كاملًا، وامتنعت منذ فترة عن تقديم أي مال إليه. عليه أن يعمل وينفق على نفسه. في البداية كنت أبحث في الصحف عن فرصة سفر إلى الخليج، ولكن مع الظروف الاقتصادية الأخيرة أصبح الأمر حلمًا بعيد المنال... حسنًا، من الأفضل أن يظل خارج المنزل أغلب الوقت وليتحمل مسؤولية نفسه. الساعة الآن العاشرة والنصف. تدخل دميانة فتجدني في انتظارها. أبادرها بالسؤال عن زيها: كيف تجرؤين على الخروج بتلك الثياب؟ لكن المنظر قد اختلف قليلًا، فهي الآن ترتدي شالًا فوق زيها يحجب أغلب نصفها الأعلى تقريبًا. صحيح أن الفستان قصير لكن المنظر الآن أفضل حالًا بكثير. قالت شيئًا لم أسمعه بوضوح وقد انخرطت في تصور سيناريوهات عديدة للقائي القادم بمقاول اليوم. انتبهت إلى صمتها، فقلت لها: لن تخرجي بهذا الزي مجددًا. لم تقل شيئًا وانصرفت إلى غرفتها. في تلك الليلة أفقت فجرًا على كابوس لم أتذكر تفاصيله. نهضت من على فراشي وذهبت لأشرب بعض الماء، فسمعت همسات أو نهنهات... إنها دميانة. لا أعلم أهي تبكي أم تتحدث في الهاتف. اقتربت من غرفتها فساد السكون وهمد الصوت.

دق قلبي بعنف شديد، لكني عدت إلى غرفتي، وأكملت نومي.

* * * *

يقول أكمل نومه، ولكن هل يمكن لأحد أن يميز بين اليقظة والنوم؟ الزمان غائب في النوم، كذلك هو في اليقظة، لكننا نتصوره وحسب، ولا يمكننا إلا أن نتصوره. هل كان نظير ثابت يعرف متى يحين موعد انهياره؟ هل كان يعرف متى يحين موعد انهيار العزبة بأكملها؟ هل كان يعرف ماذا كان ليحدث لو دخل إلى غرفة ابنته في هذه الليلة تحديدًا وتحدث معها، أو ماذا كان سيحدث لو كان قد استمع إلى كلماتها جيدًا حينما حدَّثته بعد عودتها من المنزل؟ ربما قد نتصور سيناريوهات لا نهائية بتحريك قطعة واحدة على لوح شطرنج العالم. إنها موجات... موجات متداخلة لا نعلم لها بداية أو نهاية، وفي وسطها يمكنني الآن سماع صوت مجهول يتحدث مجددًا قائلًا:

بدا يومًا كغيره؛ الاستيقاظ في الموعد ذاته، وتجهيز أخي الصغير للذهاب للمدرسة وإطعام أبي وتجهيز كل ما يلزمه ووضعه بالقرب منه. يؤلمني جدًّا أن أتركه طوال هذه الساعات التي تستغرقها نوبتي في العمل بالمستشفى، ولكن ماذا أفعل؟ نبَّهت كالعادة أخي الصغير أن يولي بابا عنايته فور عودته من المدرسة. أكان لا بد أن تموت أمي فجأةً في هذا الحادث الغريب؟ أكان لا بد أن يصاب أبي بعدها بأيام بجلطة تشل جانبه الأيمن؟ لا اعتراض على حكمة الله، ولكني أفتقد بشدة التحدث معه ومع أمي. ضاعت تقريبًا فرص الزواج، فمَن يمكنه

أن يتزوج بفتاة مثلي تحمل على عاتقها مسؤولية رعاية أب مشلول وأخ صغير؟ أعمامي نفضوا أيديهم من المشكلة تمامًا، وحتى المائتي جنيه التي كانوا يرسلونها أول كل شهر اختفت مع الوقت. جسدي يحرقني، ونفسي حزينة، لكني قد سلَّمت نفسي إلى إرادة المولى، وكل ما أسأله إياه أن يمدني بالعون حتى أتحمل مسؤولية أخي وأبي إلى أن... إلى أن... لا أعرف. وطئت أقدامي شارعنا القذر بالعزبة، في نفس الموعد. رأيت الوجوه ذاتها، وسرت في الشوارع عينها في نفس الساعة من كل يوم. الأمر الوحيد المختلف كانت بقعة الطين التي غرست فيها أقدامي، فمنذ أن بدأ العمل في الموقع المجاور للعزبة حتى بدأت برك من مياه المجاري تنفجر عشوائيًّا كل يوم في بقع مختلفة. يقول البعض: لقد شعرنا باهتزازات خفيفة تتكرر أحيانًا، لكني لم أشعر بها. توجه كثيرون إلى إدارة الحي بلا جدوى، وهو الأمر المتوقع. وصلت المستشفى. ارتديت ثياب التمريض وبدأت نوبتي. اليوم أنا مكلفة بنوبة تستمر ليوم كامل. أشعر بالقلق يمزقني بسبب غيابي عنهما في المنزل كل هذه المدة، ولكن ما العمل؟ في الساعة الواحدة صباحًا استدعتني كبيرة الممرضات، وكلفتني للعمل داخل الرعاية. لم تكن عادة تلجأ إلى تكليف ممرضة من قسم داخلي مثلي للرعاية إلا في ظروف استثنائية. توجهتُ إلى الطبيب الذي أعلن استياءه من هذا القرار، لكنه لم يُصعِّد الأمر. قرر تكليفي بأقل الأمور خطورة، وحسنًا فعل. قمت ببعض العمليات الروتينية وتتبعت أوامره، وكان آخر ما أمرني به -قبل توجهه إلى مكان الراحة- أن أسحب

خمسة أمبولات من البوتاسيوم كلورايد، وأن أستخدم سرنجة سعتها خمسون سنتيمترًا مكعبًا وأن أصلها بمضخة السرنجات، وطلب مني أن أضخه بمعدل عشرة سنتيمترات. انصرف عني، ونفذت أوامره بدقة. حدَّقت في جسد المريضة الجاثم أمامي: فتاة لا يتجاوز عمرها العشرين بأي حال. ربتُّ على وجهها وشعرت فجأة برغبة شديدة في البكاء؛ بكاء مرير من كل ما أمر به. حدَّثتها طويلًا، مستغلة فراغ الغرفة من أحد سوانا. حكيت لها عن كل ما يدور بخاطري. حدَّثتها عن شعوري بالاختناق الشديد في العزبة، والمواصلات السيئة المتعددة التي أستقلها كل يوم ذهابًا وإيابًا من المستشفى، والتحرش الذي قارب أن يصير اغتصابًا عامًّا حتى في وضح النهار. حكيت لها عن الحادث الذي رأيته بأم عيني منذ أيام. كنت في الحافلة، واقفة في مقدمتها بالقرب من السائق. راقبت الطريق وشاهدت كيف جذب شابان إحدى الفتيات إلى سيارتهما بالقوة في وضح النهار أثناء عبورها الطريق بالقرب منهما. أشرت بفزع إلى سائق الحافلة، فهز رأسه بحزن، وأكمل طريقه. كدت أجن ولم أستوعب الأمر، وتصورت نفسي بدلًا من تلك الفتاة. حكيت لها كذلك عن أمي التي تركتنا فجأة، وانقلاب العالم رأسًا على عقب بعد وفاتها، وشلل أبي، وتركه العمل، وسقوط مسؤولية المنزل كلها فوق كاهلي. قبل حدوث كل ذلك كان ثلاثتنا يدَّخر قرشًا على قرش حتى نترك تلك العزبة الحقيرة الموبوءة بالجريمة والفساد، وفجأة أصبحتُ العائل الوحيد للمنزل. أخبرتها عن احتياجي المتصاعد إلى الزواج وضياع الفرص. كان ذلك هو الهدف

الرئيس الذي يدفعني إلى بذل كل ما أستطيع بذله من جهود للخروج من العزبة. شعرت في الفترة الأخيرة أننا سقطنا في شرك، وأننا إذا لم نخرج منه سريعًا سنموت، وهذا ما حدث. ماتت أمي وفقد أبي قدرته على الحركة، وأنا أصارع بآخر أنفاسي المتبقية. ضاعت آمالي في كل شيء، ولم يبقَ لي سوى أخي الصغير.. إن استمرت به الأعوام طويلًا داخل هذا المكان، لا بد وأن يفسد. يجب أن أخرجه من هنا بأي ثمن، ولكن ما العمل؟ لماذا تتغير ملامح وجهِكِ؟ أكنتِ تستمعين لي فعلًا طوال كل ذلك؟ إنك ملاك قد أرسله الله إليَّ كي يسمعني ويطمئنني ويبعث في قلبي بردًا وسلامًا. أُقبِّل وجهكِ. ماذا يحدث؟ لماذا تضطرب الأجهزة؟ ركضت إلى الطبيب سريعًا ودموعي لم تجف بعد. قلبي يخفق بقوة، حتى أن تلك اللحظات التي فصلت ذهابي من الغرفة إلى الطبيب بدت طويلة بشكل لا يصدق. أفاق فزعًا من نومه وركض إلى الغرفة. نظر إلى الأجهزة وسألني: ماذا حدث؟ أجبت في خوف شديد: أبدًا، قمت بحقن العشرة سنتيمترات بوتاسيوم مرة واحدة كما أمرت. فصاح بجنون: كل ساعة يا بهيمة، لا مرة واحدة. غامت الدنيا في نظري وسرعان ما هرعتْ بعض الممرضات الأخريات، وطبيب آخر وانهمكوا في العمل. أول ما فعله الطبيب أن طلب أمبول كالسيوم وحقنه فورًا ليستعيد القلب خفقانه بشكل سريع، لكن الأمر لم يُجْدِ في البداية. لجأوا إلى كل الإجراءات الممكنة في مثل هذه الظروف، وتوقف القلب فعلًا لثوانٍ عن العمل، ثم عاد بعد مجهود حقيقي. حدث كل هذا وأنا منخرطة في البكاء. هل قال لي كل ساعة ونسيت، أم لم

يقل؟ لم أعمل في الرعاية من قبل سوى مرة واحدة، ونفَّذت ما أمرني به بالحرف، فلماذا توقع أن أفهم الأمر دون توضيح؟ يا ألله! استدعتني كبيرة الممرضات واحتضنتني. قالت لي إن الأمر لم يمر بخير، لكن العواقب لا تزال مجهولة، وأنهم يقومون الآن بفحص المريضة، وإن كل شيء سيتضح خلال الساعات القادمة. سمحتْ لي بالعودة إلى المنزل كي أطمئنَّ على أبي وأخي، ثم أعود ثانية إلى المستشفى للتحقيق. لا أعرف كيف وصلتُ إلى العزبة. مرَّ كل شيء كأنه فيلم يجري بعيدًا لا أدري عنه شيئًا. المنزل في منتصف العزبة، لذا لا بد من السير قُرابة ربع ساعة. لم أفكر في شيء أثناء سيري سوى ذلك الوجه الملائكي الذي فارقته في المستشفى. حتى ذلك الملاك قضيتُ عليه. لا أعرف ماذا أصابها تحديدًا. ربما دخلت في غيبوبة لن تفيق منها، ربما تعطل أي عضو حيوي داخل جسدها. هذا ما فعلته يداي! يا إلهي! كيف يمكنني تحمل مثل هذا العذاب؟ رنت كلمة العذاب في ذهني مرارًا، حتى شعرت بالأرض تهتز تحت قدميَّ، وما إن أفقت من غفلتي حتى تعالى صراخ مرعب وتهاوت بناية على مرمى البصر. لم أتصور يومًا أني سأرى هذا المشهد: بناية تتمايل بقوة وطفل يسقط من الشرفة وتصطدم البناية بأخرى؛ فتتمايل وتعلو أصوات انفجارات ويغطي الغبار كل شيء. ما هذا؟! لم أعرف إلى أين أركض، ثم ملأت صورة أخي وأبي ذهني كاملًا، فأخذت أركض صوب المنزل. المياه تتفجر أسفل قدميَّ والأرض تهتز والبنايات تتساقط والانفجارات تتوالى. تتملكني شجاعة مذهلة فأقفز فوق الحطام وأظل أركض حتى

أرى أمامي مباشرة مجموعة من الرجال يركضون في الاتجاه المعاكس وأحدهم يسقط إثر رصاصة أصابت كتفه تقريبًا. التفتُّ ولم أرَ المنظر جيدًا. اقتربتُ بسرعة من المصاب وضغطت بشدة على الجرح ومزقت قطعة من قميصه وهو يصرخ ألمًا وربطت الجرح بها بقوة. لم يعد لديَّ المزيد من الوقت. أسندته إلى حائط ربما سيتهاوى مثلما يتهاوى كل شيء. أكملت ركضي صوب المنزل. حتى الطريق لم تعد ملامحه واضحة. يا رب! يا رب! وصلت أمام البناية وحمدًا لله لا تزال سليمة. صرخت بضراوة منادية أخي، وصعدت درجات السلم، فوجدته يبكي. احتضنته، وحاولت طمأنته. قلت له: الوقت لم يعد في صالحنا.. عليك أن تتمالك نفسك وتساعدني. فأومأ لي بالإيجاب والدموع لم تجف بعد. سند أباه لينهض من جلسته، وجمعت كل ما تركته في المنزل من نقود والأرض تهتز تحت قدميَّ. تعاونَّا على دعم أبي حتى يستطيع النزول. لا أعرف كم مر من الوقت، لكن درجات السلم تهاوت من خلفنا بعد أن هبطنا بثوانٍ قليلة. خرجنا جميعًا من البناية، ولم أعد أعرف إلى أين نتوجه. جحيم حقيقي! حاولنا جر أبي في اتجاه الخروج من العزبة، ولكن بحسبة قليلة أدركت أننا لن ننجح. كل شيء يتهاوى من حولنا. توقفنا وأمسكت بأخي. مسحت دموعه وقلت له أن عليه أن يفارقنا ويركض بكل ما لديه من قوه تجاه مخرج العزبة الغربي. عليه أن يفعل ذلك فورًا وسنلتقي فيما بعد. أعطيته كل ما لديَّ من نقود. ازداد بكاءً ورفض في البداية، لكني أخبرته أن هذا هو الحل الوحيد، ودفعته دفعًا حتى ركض. سندتُ أبي وحدي بصعوبة لنكمل سيرنا وسط الأنقاض.

شعرت بجسده يزداد ثِقلًا بصورة غريبة؛ فناديته وأدركت حينها أنه لم يعد معي. وقفت وسط الحطام والانفجارات وكابوس حي يدور من حولي، وشعرت أن كل شيء قد هدأ. لقد مات ولا بد أن دوري قد حان. أنا أستحق العقاب على ما فعلته بملاكي الذي أرسله إليَّ الله إلى المستشفى. ربما لا أستحق الحياة فعلًا، ولكن أخي! أسندت أبي إلى حائط متهدم، ونهضت من مكاني لأكمل ركضي، لكن الظلام أدركني سريعًا. هل رحلت؟ خيوط من الضوء تلوح وسط الظلام. من بعيد تتناهى أصوات عربات إسعاف أو إطفاء أو شرطة. هدوء تام. يبدو أني في طبقة عميقة من الظلام لن يجدي معها شيء من الصراخ. كيف يمكن أن أظل حية أسفل كل ذلك؟ الضوء بعيد حقًّا. أعرف أن دقائق بسيطة لن تمر قبل أن يتهاوى كل شيء ثانية. إنها فرصة دعائي الأخيرة عسى أن يعفو الله عني، ويشمل أخي برحمته وعنايته.

* * * *

في مواجهة الموت قد يحدث الكثير. في بعض الظروف يستيقظ العقل وتغزو الكيان رغبة في خير الجميع، ويزداد الشعور بالاستسلام أمام قوة لا تُقاوم. وفي لحظة يحيا المرء حيوات بأكملها ويتفتح الوعي. مع البعض قد يحدث العكس؛ تزداد المقاومة، وبالتالي تصير قوة الموت وحشية، ويشعر المرء أن قدمًا تدهسه.

قبل انتهاء الصوت المجهول أو بعده –لا فارق– يقول مراد عبد العظيم: اليوم هو الأول في العمل بإحدى عمارات السيدة زينب. لن

يستغرق العمل أيامًا طويلة؛ لأن الحي قد وصل إليه الغاز منذ فترة طويلة، ولكن شققًا متناثرة هنا وهناك كانت مغلقة منذ أعوام، ويريد أصحابها الآن توصيل الغاز. أنهيت العمل، وفي طريقي تذكرت شقة جدي القديمة. إنها الميراث الوحيد الذي تركه جدي لأبي ومن بعده لنا. لم أزر المكان منذ عدة أشهر. راودتني رغبة في المرور بالمكان ما دمتُ بالقرب منه. شيء بداخلي يدعوني للتمسك بأي ذكرى جيدة. كل ما يدور في ذهني من ذكريات يتعلق دائمًا بما هو سيئ. حينما أسمع كلمة نوستالوجيا أشعر أنه لا يمكنني إدراك ما يقولون، كأنهم يتحدثون بلغة أجنبية، أو عن شيء لم أختبره قط. كلما مر الوقت ازداد ابتعادي عن أبي، وبالتالي تحسنت الأمور بدرجة، حتى حانت لحظة موته التي شكلت لحظة انعتاق حقيقية لي، لكن الآلام مبرحة. رغبة رهيبة تجتاحني لتواصل حقيقي مع شخص ما. اقتربتُ من الشقة وذهني يصور لي مشاهد لقاء حميم مع حبيبة في وقت ما، وقد يكون المكان المناسب لها هذه الشقة. أهز رأسي لأُنحِّي عن ذهني تلك الأفكار. اقتربت من مدخل العمارة. الحقيقة أني لا أتذكر الكثير عن جدي، فقد مات أثناء طفولتي المبكرة. كل ما أتذكره مشاهد متناثرة، والمشهد الأكثر وضوحًا هو دخولي إلى غرفته وهو مستلقٍ على فراشه في أيامه الأخيرة، وحوله الكثيرون، وكيف كدت أتعثر في خراطيم المحاليل المعلقة. صعدت الطابق الثاني، وأخرجت المفتاح، وحاولت فتح الباب، فلم يدخل المفتاح من الأساس. حاولت أكثر من مرة بلا جدوى. المفاجأة أني سمعت صوتًا بالداخل، ثم أُضيء نور المدخل. لحظات

وفتح أحدهم الباب وسألني بغلظة: «ماذا تفعل؟»، لم أجبه لدهشتي في البداية، فكرَّر سؤاله بمزيد من الغلظة، فقلت له: «مَن أنت؟». «هل أنت معتوه؟ تحاول فتح شقتي ثم تسأل سكانها مَن أنت؟ آه أيها الفاجر». كل ما حدث بعدها كان بمثابة كابوس ثقيل الوطأة. عطَّلتني الدهشة عن الفهم مما زاد الموقف تعقيدًا. شيء بداخلي رفض التصديق مما زاد من تأزم الموقف، وتطاولت الألسنة والأيدي ولم يسمعني أحد. انتهى بي الأمر في قسم الشرطة بعد أن أصر الرجل وسكان المكان على اصطحابي إلى هناك. كان من الممكن أن ينتهي الأمر بإصابتي بجروح خطيرة، وربما كان من الممكن حتى أن أفقد عيني لولا تدخل بعض العقلاء الذين ساورتهم الشكوك حول اتهام الرجل لي بالسرقة، خاصة أن شخصيته الكريهة ربما كانت باعثًا على مقاومة البعض له. تبين كل شيء بوضوح في القسم فور استجواب بسيط وتكشفت القصة. أدرك الضابط الأمر سريعًا وطرد كلينا بعد تحذير شديد اللهجة من افتعال مشكلة أخرى أو حتى الاقتراب من القسم. باع أخي الشقة فعلًا لذلك الرجل. تصرف بموجب التوكيل الذي سجلناه أنا وأمي له كي يتولى إنهاء أمور الميراث وما شابه، لكني لم أتخيل للحظة أن الأمور قد تصل إلى هذا الحد. شيء يمزقني، وأشعر برغبة طفولية في البكاء ممزوجة بغضب ومشاهد انتقام. صدمت الحائط بيديَّ أكثر من مرة، وشتمت أبي وبصقت في وجهه المتخيل أمامي. اشتدت آلام جسدي بعنف؛ فتداعيت على أحد الأرصفة وبكيت. علمت أن أفظع ما في الخيانة هي الوحدة؛ تلك اللحظات التي تدرك أنك فيها بمفردك تمامًا. كيف أمكن

أن أحيا تلك السنين داخل قوقعة مفزعة من ضيق الحدود والأفق؟ كل ما كنت أسعى إليه هو مزيد من الانعزال، فالانخراط في المجتمعات التي عشت فيها كان بمثابة انتحار. ثقل رهيب رابض بداخلي. تحركت في الشوارع بطيئًا وأخذت أفكر كثيرًا، وصوَّر لي عقلي مشاهد مفتعلة رخيصة عن انتصارات وهمية لم أحرزها؛ انتصارات على أبي وأخي، وحتى على صمت أمي. دخلت المنزل، فوجدت أمي جالسة على الأريكة تتلو آيات من القرآن. سألتها سريعًا: «ماذا حدث لشقة جدي؟»، رفعت رأسها ونظرت إليَّ دون أن تنبس بشفة. «أسألكِ ماذا حدث لشقة جدي؟». في تلك اللحظة انفتح باب الشقة ووجدت أخي يدخل وقال لي بحدة: «تعلَّم أن تُحدِّث أمك بلهجة مهذبة!». «من يُحدِّثني عن التهذيب؟ سارق نصيب أخيه؟». رفع يده كما توقعت ليصفعني، لكنني أمسكت بها فجن جنونه. أشاح بيده الأخرى بعنف فارتطمت بزهرية ورد على المنضدة فطارت وتحطمت قِطَعًا. حينها تركت أمي القرآن ونهضت منزعجة. لكن رد فعلي السريع غير المتوقع حينما أمسكت يد أخي بعنف، ونظرتي المحدقة بغضب ناري غيَّرت موقفه سريعًا. أدركت في تلك اللحظة تحديدًا جوهر شخصية أخي، كأن كل شيء يتكشف في أفعال بسيطة. «نصيبك محفوظ يا غبي. جاءتنا فرصة جيدة لبيع الشقة فبعناها». «وأين هو نصيبي المزعوم؟». «محفوظ معي». «ائتني به». «سأفعل ذلك بالطبع». «هل تظن أني بهذا الغباء؟». «وهل تظن أنني أقبل الحرام؟». «نعم». صمت. صمت تام. لم تكن الإهانة هي المفاجأة، ولكن شعوره أنه تعرَّى تمامًا، وأن غيره يراه كما هو فعلًا.

هذه هي المفاجأة الحقيقية. قال: «لا تجعلني أتصرف بطريقة لا تروق لك». «وماذا يمكن أن تفعل أكثر من ذلك؟». رغم كل شيء، شعرت بالدهشة. كانت بقايا غامضة من الآمال لا تزال تحيا بداخلي. تناول القرآن من يد أمي وقال: «والمصحف الشريف لم أسرقك». التفتُّ إلى أمي فوجدتها تبكي، لكنها التزمت الصمت. دخلت غرفتي وأغلقت الباب خلفي. حزمت أمري. سمعتهما يتهامسان خارج الغرفة، وبعدها أديَّا الصلاة معًا. لم أفارق الغرفة، لكن عندما حل الفجر كنت قد حزمت ما استطعت حزمه من ثيابي وفارقت المنزل. قلت في نفسي: خروج بلا رجعة. بقدر الألم والحزن بقدر ما تسلل إليَّ شعور غامض بالرضى ملأ كياني كله. شعرت بفرحة إنسان يدخل العالم للمرة الأولى. لم يكن يكفي أن تصمت أمي ولا أن يموت أبي، ولا أن يخونني أخي. كنت في حاجة إلى هجران عالمي كله واقتحام عالم جديد. تتزاحم الأفكار والمشاعر بكثافة في كياني؛ مخاوف وآمال ومزيج من الحزن والسرور وتردد ورغبة في التواصل؛ بل ظمأ عاطفي لا حدود له. ذهبت بحقائبي ذلك اليوم إلى موقع العمل وتركت أغراضي في إحدى سيارات الشركة حتى أنهي العمل. كنت شارد الذهن طوال وقت العمل، وعندما أنهيته بحثت في الجوار عن غرفة للمبيت في أي فندق رخيص أو بنسيون قريب من مكان العمل. دلَّني أحد الزملاء المغتربين. أجَّرت الغرفة. عندما أخرجت حاجاتي واستلقيت على الفراش، أدركت أنه بالرغم من بؤس الغرفة والفراش غير المريح، والمقعد المكسور والمنطقة الشعبية والضوضاء الشديدة، إلا أنني أبدأ حياتي اليوم فقط. نظرت إلى

السماء وابتسمت. قلت له: شكرًا رغم كل شيء. أستيقظ في السادسة والربع. أخرج من غرفتي في السادسة والنصف وأتناول إفطاري من عربة الفول في آخر الشارع. أتوجه إلى الكورنيش القريب، وأجلس على نفس المقعد لمدة نصف ساعة تقريبًا. بعدها أتوجه إلى عملي، ويبدأ الجهد البدني الشاق في تركيب مواسير الغاز ونصب شبكات السلالم في المناور وتسلقها. ينصبُّ كل تركيزي على العمل ولا أفكر في شيء آخر، وأختبر شعورًا بالراحة النفسية مع الإنهاك البدني. ينتهي العمل في الثالثة تقريبًا فأذهب لتناول الغداء في أي مطعم قريب. غالبًا ما يكون الغداء طبق كشري أو عدس. بعدها أستمر في التجول ثانية على الكورنيش لمدة قد تتجاوز الساعتين. أراقب المارة باهتمام شديد. أسمع أحاديثهم وضحكاتهم وبكاءهم. راقبت مئات المشاهد في تلك الآونة. سمعت عشرات المكالمات الهاتفية، وتسللتْ إلى أذني كلمات الحب والغزل والسباب. كنت أشعر بظمأ غريب لمعرفة قصص الناس والغوص في عوالمهم الخفية، وكثيرًا ما وددت أن أسير خلف أحدهم لأراقب كيف سيتطور أمره بعد ما سمعته منه في الهاتف. وددت لو أربت على أكتاف الحزانى والمهمومين وأن نتشارك همومنا، وأردت أن أشارك البعض أفراحهم وأتمنى لهم المزيد منها. بعد هذه الجولة اليومية، كنت أعود إلى غرفتي وأغسل ثيابي. تقريبًا لم أكن أكوي ثيابي؛ فقد اعتبرت الإنفاق على هذا البند في مثل هذه الظروف بمثابة رفاهية لم يحن وقتها بعد. بعد إتمام الغسيل أقرأ لمدة نصف ساعة على أقصى تقدير، وأغوص في نوم عميق لأستيقظ مبكرًا مرة

أخرى، ويبدأ روتيني اليومي من جديد. في العطلة الأسبوعية أنشغل بالغسيل ومزيد من النوم والقراءة والتجول. في تلك الفترة تحديدًا فارقتني أحلامي الجنسية الفجة، وأصبحت أكثر رقة. كنت أحلم بوجه غامض لامرأة يبتسم وتلوح عليه إمارات الفرحة والرضى. تمسك بيدي وننخرط في حديث طويل أفيق منه شاعرًا بنشوة لا حدود لها، وأحاول العودة بلا فائدة لتصور الوجه. عندما أراقب المارة كنت أبحث عن ذلك الوجه الغامض. متى يظهر؟ متى؟

* * * *

في الآونة الأخيرة يشعر نظير ثابت بنعاس شديد لا يفارقه. يحاول أن يفيق دائمًا بلا فائدة، كأن ثقلين رابضين فوق جفنيه يحاولان إغلاق عينيه بإصرار ومثابرة. قال أحدهم ذات مرة: «النوم يشبه الموت، مع فارق واحد؛ أنك تنام وتستيقظ على نفس الحياة، لكنك عندما تُولد لا تعرف من أي حياة جئت، وعندما تموت لا تعرف إلى أي حياة تذهب».

يقول نظير: أدركت خطورة الأمر حينما وجدت المقاول في زيارة إلى الحي. كنت متوجهًا إلى باب الخروج، وإذ به قادم من بعيد. استدرت مسرعًا ودخلت دورة المياه. انتظرت دقائق خرجت بحذر. إن رأى مكتبي سيعرف حتمًا أني لست مهندس الحي. أظن أنه لا يعرف اسمي، ولكن ذلك يعني أن الأمر سينكشف آجلًا أم عاجلًا. عليَّ إذَنْ بزيارته قريبًا لآخذ دفعة ثانية؛ لأنها ربما تكون الأخيرة. ذهبت إليه مساء اليوم في نفس الموعد. وقفت أمام موقع البناية وانتظرت. مرت عشر دقائق

دون أن يظهر. اقتربت أكثر وأخذت أذرع المكان ذهابًا وإيابًا بشكل واضح. أخرجت هاتفي المحمول وتظاهرت بتصوير المكان وعدت إلى موقعي مجددًا، وحينها ظهر. جاءني بابتسامته، وما إن بدأ حديثه حتى أعدت لأذني طنينًا يحول بيني وبين الاشتراك في ذلك الحديث. لم أقل شيئًا تقريبًا واكتفيت بهز رأسي كل فترة بطريقة حيادية، ولكن حينما دس يده في جيبي تهللت. تمالكت نفسي حتى لا يلحظ تقلقلي الرهيب وانصرفت. أخرجت المبلغ من جيبي: خمسمائة جنيهًا أخرى! انتهت مهمة اليوم الأولى. المهمة الثانية هي الذهاب للأنبا برثلماوس. قبل أن يُعيَّن أسقفًا عامًّا قضى فترة خدمة طويلة بالكويت. هذا يعني توفر شبكة علاقات جيدة بأصحاب العمل المصريين هناك، ولا بد أن بإمكانه -إن رغب- التحدث مع أحدهم لتوفير فرصة عمل لابني الصايع. ثمة قرابة بعيدة تربطني به. كلفني تحديد هذا الموعد أسبوعًا من الذهاب اليومي إلى استراحته ومائتي جنيه تبرع لصندوق الفقراء بالاستراحة؛ لأتمكن في النهاية من تحديد هذا الموعد. مناورات لا نهائية وتزلف مرة للأخت المكرسة لخدمته، ومرة للفرَّاش، وثالثة ورابعة. الموعد في السابعة. وصلت قبل موعدي بربع ساعة. رفض موظف البوابة أن يُدخلني لأنتظر بالداخل. أسير أمامه في الشارع ذهابًا وإيابًا لتمضية الربع ساعة المتبقية. كم مرة توجب عليَّ الانتظار؟ إن حياتي كلها بمثابة انتظار. إن مجرد فكرة عدم وجود حياة أبدية قادرة على تفجير رأسي تمامًا. أيمكن بعد كل هذا العذاب والإهانة والمذلة أن ينتهي كل شيء وحسب؟ مستحيل! أغرق في تصوراتي المعتادة:

لقاء الخميس بقوة غير قوتي، وزوجة لا تشبه زوجتي، وسفر الصايع إلى الخليج وإرساله نقود شهرية، وزواج دميانة وتقلص المسؤوليات تمامًا، والوفرة المادية التي ستنتج بعد سفر الصايع وإرساله بعض النقود إلينا، وزواج دميانة، والتلذذ دون مشاغل... هل هي رغبات مستحيلة؟ انتهت المهلة وأشار إليَّ موظف البوابة. دخلت قاعة الانتظار، وانتظرت ما يقرب من عشر دقائق أخرى. متى أنعم بمقاعد وثيرة ومريحة في منزلي كتلك التي أجلس عليها هنا؟ لست في حاجة إلى موظف بوابة وسيارة دفع رباعي كالرابضة الآن في انتظار الأسقف، بل تكفيني سيارة دايو لم يتجاوز تاريخها خمسة أعوام مثلًا. لست في حاجة إلى مثل هذا النجف الضخم، بل سأكتفي بلمبات فينوس ذات إضاءة جيدة، بدلًا من تلك الباهتة التي تغرق منزلي بالكآبة. لست في حاجة إلى أخت مُكرَّسة تخدمني، بل كل ما أرجوه أن أغيِّر الغسالة القديمة التي ترتج بقوة تفزعني. لست في حاجة إلى مثل تلك الشيكولاتة الفاخرة التي قدموها إليَّ، والتي لمحتُ سعرها الجنوني واضحًا على العلبة، بل يمكنني الاكتفاء بنصف كيلو شيكولاتة بالبلح من حلواني العبد شهرًا بعد شهر. يتقدم الآن الأنبا برثلماوس. أُقبِّل يده البضة الناعمة التي يمدها لي وأشتم رائحة عطر ممزوجة بالبخور. صوته ناعم، لكن منظره قد تغير كثيرًا منذ أن شاهدته آخر مرة منذ عامين. ازداد بدانة بصورة واضحة. رحَّب بي بصورة فاجأتني، وفور أن بدأ الحديث عن ابني، رن هاتفه المحمول وتحدث لعدة دقائق مع سيدة ما. حاولت أن أكمل حديثي ولكن صوت إشعارات مستمرة على هاتفه قاطعنا، واضطر للرد

على بعض الرسائل الإلكترونية. لست في حاجة حتى إلى مثل هذا الهاتف المحمول العملاق، يكفيني هاتف لا يحتاج إلى الشحن كل ثلاث ساعات. رفع رأسه من على هاتفه واعتذر إليَّ، فقد اتضح أن لديه موعدًا عاجلًا، وطلب مني أن أترك طلبي مع الأخت المُكرَّسة. قبَّلت يده الممدودة وراقبته وهو ينصرف، وقبل أن يخرج من الباب أشار إليَّ لأتناول شيكولاتة أخرى، وأضاف لي ألا أقلق فهي شيكولاتة صيامي لأن اليوم هو الأربعاء. ورأيت عبر باب الردهة المفتوح السائق يفتح له باب العربية ويستقل الأسقف السيارة منهمكًا في رسائله الإلكترونية، وتنطلق السيارة. أفقت لنفسي على صوت الأخت المُكرَّسة، فطلبتُ ورقة وقلم أتتني بهما. كتبت طلبي وغادرت. بوصولي إلى المنزل كنت قد تيقنت تمامًا من أن اللقاء قد فشل، وشعرت بعذاب المائتي جنيه بالإضافة لأجرة المواصلات طوال هذا الأسبوع ذهابًا وإيابًا إلى مقر استراحته ووحدات الهاتف الضائعة في مكالمات من أجل تحديد هذا الموعد. شعرت برغبة في سب موظف البوابة والأخت المُكرَّسة وجميع الوسطاء. جلست على مقعدي ساكنًا لا أتحرك. في اليوم التالي قالت دميانة إن القس أبرام نجح بالفعل في توفير فرصة عمل لأخيها بالكويت، وأن موعد السفر سيتحدد في غضون أيام. تجددت الآمال وسط أجواء محبطة، ودخلت غرفتي غارقًا في أحلام يقظتي.

* * * *

نظن أحيانًا أننا غارقون في أحلام يقظة، لكننا أحيانًا نغوص فيما

هو أكثر تعقيدًا وخطورة من ذلك. قد تصبح هذه الأحلام بمثابة رمال متحركة نغوص فيها، ونحاول الخلاص منها لثوانٍ بلا طائل قبل أن تبتلعنا كاملًا. لا يدرك نظير ذلك مثلما لا ندرك في أغلب الأوقات أن كل ما يفصلنا عن كارثة ما هي إلا ثوانٍ قليلة.

يتناهى إلينا صوت مجهول من بين عدد لا نهائي من الأصوات يقول: أفقت من غيبوبتي في ظلام دامس. لم أستطع في بداية الأمر التفكير بوضوح فقد انهالت عليَّ صور الذاكرة والخيال والخوف وأنصاف أفكار تجول هنا وهناك. شعرت برأسي يتمزق من ألم بداخله وبخارجه. إغماض العين مثل فتحها، فلا شيء سوى الظلام. لا بد من الهدوء وإدراك ما حدث. هذه الصرخات المريعة تجعلني أشك في واقعية المشهد. أيمكن أن يكون الأمر أنني لا أزال أغط في النوم؟ ماذا حدث؟ هدوء... ولكن آه من الألم. تعود إليَّ حواسي تدريجيًّا، وأتذكر ما حدث. انقضت الشياطين على العزبة. نعم هذا ما حدث. أصوات انفجارات وانهيارات وصراخ وطلقات رصاص ثم محاولة للهروب عبر السلالم وتدافع الجميع من حولي وسقوطي، ثم تطؤني الأقدام مرارًا، وأفيق على منظر سلم مكسور، ثم محاولة القفز في نفس اللحظة التي تداعى فيها ما تبقى من البناية، ثم ظلام، ثم ها أنا الآن. يقينًا لا أحلم. لا أعرف كيف يمكنني أن أتيقن من ذلك وسط هذا الخوف والهلع والألم والظلام، لكن شيئًا يجعلني متيقنة من ذلك. لا بد أني تحت الأنقاض. يا إلهي! صراخ. أسترق السمع لمدة طويلة

من الوقت. سمعت ما لم يكن عليَّ سماعه. احتضار آخرين تحت الأنقاض، وتجديف البعض على إرادة الله واستغفار ووداع أحبة والبحث عن بقية أفراد الأسرة وصوت تهشم العظام وطحن الرؤوس. حاولت تعديل وضعي بهدوء، فأي حركة مفاجئة من شأنها أن تهدم تلك الفجوة التي أنا فيها في لحظة واحدة. أشعر بارتجاف شيء ما. استغرق الأمر مني دقيقة حتى أدركت أن مكان الارتجاف عند جيبي. لم أصدق! مددت يدي بصعوبة شديدة كي أصل إلى جيبي. أدركت في البداية أن يدي اليمنى قد أُصيبت بكسر لا محالة؛ لأني لم أستطع تحريكها. لجأت إلى اليسرى واستغرق الأمر مني بعض الوقت كي تصل اليسرى إلى جيبي الأيمن في تلك المساحة الضيقة، مع آلام رهيبة بالكتف. وصلتْ يدي ولم أصدق: إنه هاتفي المحمول! أيُعقل ألا يكون قد تحطم مع كل ما حدث! أخرجته وأمسكت به، فاتضح أنها رسالة تسويقية من شركة الاتصالات. وجمت. ظننت أني سأبكي أو أضحك، لكنني وجمت. أيمكن أن أصل فعلًا إلى ابني وأسمع صوته للمرة الأخيرة؟ أعوام طويلة في انتظار الإنجاب بلا جدوى. مات أبي وتلته أمي دون أن ينعما برؤية حفيدهما، ولم يتبقَّ لي سوى زوجي الذي ملَّ الانتظار، فهجرني دون طلاق. عرفت بعد ذلك أنه تزوج بأخرى وأخذ كل ما يهمه من المنزل وانتقل عندها خارج العزبة. ماذا يمكن أن تفعل امرأة عندما تستيقظ يومًا فتجد نفسها دون طفل أو سند أو زوج، قابعة في العزبة؟ ماذا يمكن أن تفعل عندما تدرك بعدها بأيام قليلة أنها حامل من هذا الزوج؟ أقول لكم ماذا تفعل:

أول ما عليها فعله هو أن تخفي الخبر عن زوجها الذي لا يستحق أن يعلم، فهذا ابنها وحدها لا ابنه. ثاني أمر تفعله هو أن تبحث عن وسيلة لكسب الرزق، وثالث ما تفعله أن تتمسك بإيمان شديد بالله أو تكفر! ولكن كيف يكفر المرء أمام هذه التدبيرات المذهلة؟ بالأمس فقط؛ أي قبل الانهيار بيوم واحد ألحتْ صديقتي المقرَّبة أن تأخذ طفلي يومًا واحدًا وتعتني به لتترك لي فرصة للبحث عن عمل مناسب. صديقتي تقطن بالقرب من العزبة في إحدى زوايا المعادي الرخيصة نسبيًّا. نجا الطفل، فقد قدَّر له الله أن ينجو من هذا الدمار. بكيت بكاءً مريرًا. أزفت ساعة الموت وقد نجا طفلي بأعجوبة. لا يهم التفكير في مصيره، فالمصير بيد الله وحده. منذ مهلة قصيرة كنت حية، ثم مرت لحظات ومات كل مَن حولي، وها أنا الآن حية ثانية، لحظات ويأتيني الموت، وفوق كل هذا ينعم الله عليَّ بهاتف محمول قد يُمكِّنني من سماع صوت ابني الذي لم يتخطَّ عمره ثلاثة أشهر فقط. كيف يمكنني استيعاب كل ذلك؟ اخترت اسم صديقتي من القائمة وطلبتها، فجاءني صوت الرسالة الآلية التي تخبرني بأن الرصيد قد انتهى. أغمضت عينيَّ وسلمت أمري لله، وإذ الهاتف يرن. رقمها. لا بد أن رسالة قد وصلتها إذَنْ بمحاولة اتصالي. ضغطت على الزر وحاولت التكلم، ولكن صوتي لم يخرج في البداية. ظلت تصرخ في الهاتف، فأدركت أنها عرفت خبر الانهيارات، لذا لم تصدق الاتصال، وأخيرًا استطعت بصوت خفيض أن أُحدِّثها. قطعت حديثها الهيستيري وجعلتها تفهم أني سأموت في غضون دقائق، وأن كل ما

أريده أن تُقرِّب الهاتف من ابني كي أسمع صوته وأودِّع هذا العالم. انفجرت في البكاء، وقرَّبت الهاتف. استحثتْ طفلي على أن يصدر صوتًا ولاطفَتْه، وأخيرًا سمعتُ صوته. ستظل هذه النهنهة عالقة في أذنيَّ حتى في العالم الآخر. استمرتْ قليلًا ثم انقطعتْ؛ فأدركتُ أن الهاتف قد انطفأ. ابتسمت وحدثت صديقتي في قلبي وقلت لها بأن تعتني بطفلي، فأجابتني أنها سترعاه وسط أطفالها كما لو أنه واحد منهم. ابتسمت واستغفرت ربي الكريم؛ عسى أن يسامحني على كل شيء. إنه كريم إلى أقصى حد حتى أنه سمح لي بهذه المكالمة الأخيرة. سأموت في سلام، فقد عاد الاهتزاز، وهي مسألة لحظات فقط قبل أن...

* * * *

ليس بإمكاننا فعل شيء سوى رواية الحكاية، ولنترك أمر ترتيبها لمن يشاء. رغم إدراكنا في كثير من اللحظات لوهم المكان والزمان، لكننا مضطرون إلى إدراك الأحداث داخل نطاقهما، وبالتالي ترتبط حكاياتنا مؤقتًا بالعزبة، سواء كانوا تحت أنقاضها، أو كانوا يسكنون في أماكن أخرى، لكنهم متوجهون إليها في لحظة ما لا يدرونها.

يقول نظير ثابت: بمرور الوقت أزداد تورطًا. أمُر على مواقع جديدة للبناء -وما أكثرها- ويتلخص الأمر كله في مهارة إيصال الرسالة من دون رسالة! كيف تقنعهم أنك المهندس المسؤول دون أن تقول لهم ذلك؟ يعتمد الأمر على الثقة في الذات وتمثيل مشهد

محادثة تليفونية أُحدِّث فيها زملائي المتوهمين من مهندسي وموظفي الحي. أنتجت هذه الخلطة عدة آلاف في غضون شهر واحد. بهذا المال وحده تمكنت من تدبير أمر الصايغ. نجحتْ محاولة دميانة بسرعة غريبة، وفي غضون أسبوعين بالتمام والكمال كان الصايغ قد وصل إلى الكويت وبدأ عمله. يقول إن عمله هيِّن جدًّا، يتعلق بإدارة بعض الحسابات المتعلقة بالكنيسة هناك. حمل ثقيل انزاح من على كاهلي، والآن تنحصر مهمتي في تزويج دميانة. لا أعرف من أين يمكنني تدبر المال الكافي لتجهيزها. في الفترة الأخيرة قلَّت زياراتها للكنيسة بدرجة ملحوظة. تواجهني كل صباح بوجه واجم. سألتها مرتين عن سبب عدم حضورها الاجتماعات التي كانت تواظب عليها في الكنيسة؛ فتمتمت بجمل مقتضبة عن شعورها بالإرهاق والملل وما إلى ذلك. أتحامل على نفسي اليوم وأستيقظ مبكرًا لحضور القداس المبكر قبل الذهاب للعمل. لم أحضر منذ فترة ولم أتناول الجسد والدم الأقدسين. أقاوم النعاس وأسير بخطوات منتظمة. أدخل الكنيسة، وأشعر بالدفء، وتغزو أنفي روائح البخور، ومع تصاعد النغمات الرتيبة والكلمات القبطية يزداد شعوري بالنعاس إلى درجة لا تقاوم. أنتظر صوت الشماس: «اسجدوا لله بخوف ورعدة» لأجلس كبقية الجالسين، وأسند رأسي إلى الدكة الأمامية كعلامة على السجود. أستغرق في النوم لحظات وأفيق على صوت الشماس: «يا رب ارحم!» عليَّ النهوض ثانية. أقدم هذه التضحيات عن طيب خاطر وأنهض رغم النعاس الرهيب عسى أن يرأف مارجرجس بحالي وتتولاني العذراء

بحمايتها. أقف في طابور المتقدمين إلى التناول. طابوران: أحدهما للرجال والآخر للنساء. يتولى أبونا أبرام مناولة الخبز المقدس. أثناء التقدم، وقعت عيني مصادفة على تلك الفتاة في الطابور المجاور. ثمة ما يميز حركتها ومظهرها. سروالها ضيق بعض الشيء. كانت تسير بمحاذاتي تقريبًا، وتقدم كلانا في الوقت ذاته لتناول الخبز المقدس. هي على اليمين وأنا على اليسار. تركزت عيناي بشكل طبيعي على أبونا أبرام، فأمسك بقطعة كبيرة من الخبز المقدس ومدها إلى فمها. لاحظت أن عينيه منخفضتان بعض الشيء؛ فنظرت بطرف عيني صوب اتجاه عينيه ورأيت مفرق صدرها يلوح بوضوح مع ميلها صوبه لتناول الخبز المقدس. انصرفت وناولني قطعة صغيرة من الخبز. مضيت شاردًا حتى نبهني أحدهم لابتعادي عن طابور تناول الدم المقدس[1]. تناولته وانتظرت نهاية القداس ورش الماء المقدس. انصرفت في وجوم وقلبي يدق بسرعة. في طريقي إلى المنزل رأيت أبي يسير بجانبي. كنت وقتها قد جاوزت العاشرة بقليل. اختلفت طريقة سيره تمامًا بمرور يوم واحد على الحادث. بالأمس كنت أسير بصحبته وبصحبة أمي، ذاهبين إلى وجهة لا أتذكرها الآن. عادة ما يسير بخطوات بطيئة، مستقيم الظهر، يرتدي نظارته الشمسية، يبرز بطنه المنتفخ بوضوح من القميص الضيق، يفسح مساحة بين ذراعيه وبقية جسده، فيبدو كلاعبي كمال الأجسام الذين تنتفخ عضلاتهم فتبتعد أذرعهم تلقائيًّا عن

(١) الخبز والدم المقدسان هم قدر قليل من خبز ونبيذ تؤمن بعض الطوائف المسيحية أنهما يتحولان بصورة سرية إلى جسد ودم المسيح اللذين بذلهما بموته من أجل غفران خطايا الناس.

أجسادهم. يسير منتفخًا متقدمًا عني وعن أمي بخطوات، يلقي التحية على هذا وذاك؛ فيبدو كمسؤول مهم يتفقد مشروعاته ورعاياه. لكن الحادث غيَّر هذه المشية تمامًا. كان يتقدمنا كالمعتاد إلى أن مر بنا ثلاثة شباب، اقترب أحدهم من أمي واصطدم بها متعمدًا، وأثناء اصطدامه تحسس صدرها بفجاجة. صرختْ أمي من هول المفاجأة، أما أنا فقد اشتعلت غضبًا. ركضت خلفه وقبل أن أقفز عليه كان قد وجَّه إليَّ ضربة مؤلمة بيده في بطني جعلتني أتلوى ألمًا على الأرض. حدث كل ذلك في ثوانٍ قليلة. توقف أبي في تلك الثواني، والتفت على إثر أصوات الصراخ ووجدني أتلوى ألمًا وأمي تبكي وتركض صوبي وفهم الأمر. صاح بصوته الجهوري سابًّا هؤلاء الشباب، لكنهم سبُّوه أيضًا. نظرت من حولي ووجدت المارة يراقبون ما يحدث في صمت تام، كأن شيئًا لا يحدث. انفجر أبي غضبًا وبدأ يلاحقهم قائلًا إنه سيضربهم ضربًا مبرحًا. فجأة توقفوا والتفتوا إليه وأعادوا سبابه بأقذع الألفاظ. لم يتحمل الإهانة المتواصلة، فاندفع بسيرته الخرقاء صوب أحدهم، وقبل أن يرفع يده ليصفعه، كان الأخير قد سحب مطوته، وجرح بها كتف أبي. صرخ ألمًا واندفع صوبه مجددًا، ولكن تلك المرة جاءت المطواة على خده الأيمن. مال أبي من الألم فعاجله الشاب بركلة في معدته أسقطته أرضًا تمامًا وطارت نظارته الشمسية وسقط بعنف من ثقل وزنه. حدث كل ذلك على مرأى ومسمع من سكان المنطقة، ولم يتدخل أحد سوى بالمتابعة الصامتة. صورتان لا تفارقان عقلي أبدًا؛ أبي وهو ملقى على الأرض يئن ألمًا بوزنه الثقيل والقميص الضيق

الذي انفرج وتمزق من عند بطنه المنتفخ، والمنظر الآخر هو طريقة سيره في اليوم التالي بصحبتي، حيث أصبح يسير بمحاذاتي، مائلًا إلى الأمام، من دون نظارته الشمسية المفضلة، وخطوات مرتبكة، يتحسس الطريق أمامه كضعيف البصر. منذ ذلك اليوم تغيرت أمور كثيرة. استعدت المشهد كاملًا في اللحظة التي رأيت فيها نظر أبونا أبرام مُوجهًا صوب مفرق ثديي الفتاة، ولا أفهم السبب. تمنيت وقتها أن يقول أبي كلمة واحدة، فقد تعاظم شعوري بالذنب، لكنه لم ينطقها. أدخل المنزل الآن وأجد دميانة في انتظاري. آثار الدموع واضحة على وجهها. سألتها عما بها، فأجابتني بأنها متعبة من صداع قوي. يبدو أن الأمر ليس كذلك، لكني غير قادر الآن على الاستماع إلى أي مشكلة. تركتها ودخلت غرفتي، وأغلقت الباب خلفي. أغمضت عينيَّ، أو فتحتهما، لا أتذكر... صينية طعام موضوعة أمامي، أتناول منها متلذذًا إلى أقصى درجة. أشير إلى زوجتي أن تأتيني بالمزيد. تدخل المطبخ وتمسك بصينية أخرى، وتبدو علامات الإرهاق الشديد عليها. أطلب منها أن تسرع، لكنها تتعثر أثناء خطوها. أغضب بشدة وأعنِّفها وأشير إلى دميانة أن تأتيني بصينية أخرى. تنظر إليَّ بخوف وتختفي لوهلة داخل المطبخ، وفور خروجها تبدأ أجزاء من السقف في الانهيار، حتى إن بعضها يسقط أمام صينيتي بسنتيمترات قليلة. رغم ذلك لا أخاف وأدعو دميانة للمرور صوبي. تتردد، لكني ألح، وفعلًا تتقدم بخطوات بسيطة. خطوة فالثانية وإذ بكتلة ضخمة تسقط بيننا وأسمع صراخها، ولا أعرف ما إذا كانت قد أُصيبت أم لا. أجدني أترك الصينية

وأركض وقد بدأ الخوف يدب في قلبي فعلًا. أحاول الخروج من هذا المكان. رغم الخوف أجدني واثقًا من قدرتي على النجاح في الخروج، وأقول لنفسي إن دميانة وأمها ستتمكنان من الهرب لا محالة. أتفادي الكتل الساقطة بمهارة غريبة، تارة أقفز إلى اليمين، وتارة إلى اليسار، وأشعر بالإعجاب الشديد بخفة حركاتي. كلما ابتعدت عن نقطة البداية، ابتعدتْ عني نقطة النهاية. يكبر حجم المكان بصورة غريبة، وبمرور الوقت أزداد إنهاكًا ولا أعود أتبين ما إن كنت أتقدم أم أتراجع، أتوجه يمينًا أم يسارًا. أدرك جيدًا أن ثانية واحدة من الغفلة يمكنها أن تكلفني حياتي. أتمالك شتات نفسي وأواصل التقدم، ورويدًا رويدًا أتبين مخرجًا بعيدًا. أتحرك صوبه بإصرار وعزيمة والإنهاك يكاد يشل جسدي. حفظت أذني صوت تساقط الكتل الأسمنتية، ثم سمعت صوت شيء آخر يرن، فالتفتُّ أثناء ركضي، فإذا هو الإناء المقدس الذي يضم جسد المسيح. يزداد هلعي، ثم أرى كأس الدم المقدس تسقط هي الأخرى، ثم سلسلة طويلة من الأيقونات الدينية. أرى أيقونة العذراء ومارجرجس وسط هذه السلسلة، وحينها أشعر فعلًا بالخوف أكثر من أي فترة مضت. تستمر مناوراتي حتى أقترب بشدة من الباب وألمح أخي واقفًا بالخارج، يشير إليَّ أثناء حركتي أن أعود لأجلب دميانة وأمها، فأنظر خلفي وأتخذ قرارًا بمواصلة التقدم. عندما صرت على بعد خطوة واحدة من الباب، وجدته ينصفق بعنف أمامي، ويغيب عني وجه أخي. في تلك اللحظة تحديدًا، فتحتُ عينيَّ. نهضت شاعرًا بإنهاك مفزع، وخرجت من الغرفة. حاولت استجماع شتات نفسي

وشربت بعض الماء البارد ثم وجدت هاتفي المحمول يرن، إنه أخي. سيطر عليَّ شعور كئيب ثقيل، فلم أستطع أن أخرج صوتي بسهولة في البداية، ثم استمعت له بإنصات شديد.

* * * *

بينما كان نظير يستمع إلى محادثة أخيه، كان مراد عبد العظيم قد بدأ مرحلة جديدة. يقول: بدأنا العمل اليوم بتوصيل الغاز إلى شقتين داخل العمارة ذاتها بالسيدة زينب. أدى غياب بعض الزملاء إلى زيادة عبء العمل على كاهلي وكاهل زميل آخر. تضاعفت المهمات. قضينا فترة عمل طويلة، قَطَعَتْها راحات بسيطة للإفطار وشرب الشاي، وفي حالة زميلي لشرب السجائر. في إحدى تلك الراحات كنت جالسًا عند مدخل العمارة متعرقًا بشدة رغم اعتدال الطقس. تاهت عيناي بينما أراقب المارة والسيارات، وأفقت لنفسي على كوب شاي يُقدَّم إليَّ. نظرت إلى مُقدِّمه فوجدتها شابة في عمري تقريبًا تقدمه إليَّ مبتسمة. تناولته وشكرتها ولم أكن قد أفقت لنفسي كاملا بعد. رأيتها تخطو أمامي ببطءٍ صوب الكوافير المجاور. التفتتْ إليَّ مبتسمة، ثم توارت بالداخل. لا أعرف لماذا اضطربت. داهمني الوقت، فأخذت معي كوب الشاي وصعدت إلى العمل. أنهيته أثناء العمل بالأعلى، ولم أجد حتى وقتًا لإعادته إلا عند انتهائي من عمل اليوم كاملًا. عند انصرافي، اقتربت من باب الكوافير حاملًا الكوب. لم أجرؤْ بالطبع على الدخول. انتظرت عدة دقائق حتى وجدت فتاة أخرى تعمل في المكان تخرج

منه، فسألتها عن زميلة لها أتتني بهذا الكوب. تناولتْ مني الكوب، وأخبرتني أنها ستعيده إليها. لم أقل شيئًا وانصرفت محبطًا. طوال تلك الليلة، حاولت تذكر وجه الفتاة بدقة، ولكن بلا جدوى. اختفت المعالم من ذهني ولم يتبقَّ لي سوى شعور غامض؛ مزيج من الفضول والاضطراب. في اليوم التالي تمهلت عند الدخول إلى البناية، لكني وجدت المكان مغلقًا. انتهزت أول فرصة استراحة وهبطت سريعًا ووجدت العمل قد بدأ فيه. قلت في نفسي: سأنتظر عدة دقائق ربما أكون محظوظًا. انتظرت ولم يخرج أحد، ومع أول حركة لي للعودة سمعت صوت الباب يُفتح؛ فعدت خطوة إلى الخلف بسرعة، ووجدتها تخرج. التقت نظراتنا، وابتسمت لي مجددًا. اقتربت منها وشكرتها على شاي الأمس، وأخبرتها أني أعدتُ الكوب لزميلتها. لم تقل شيئًا، لكن ابتسامتها لم تفارق وجهها. انسحبتْ مجددًا إلى الداخل، وما إن توارت عن أنظاري، حتى أغمضتُ عينيَّ، وحاولت حفظ ملامحها جيدًا. شعرت أني أعرف تلك الملامح جيدًا. هل التقيت بها قبلًا؟ ثمة أمر مألوف في وجهها، خاصة تلك الحسنة الصغيرة بجانب شفتها السفلى. اعتصرتُ ذاكرتي دون أن أصل إلى شيء، وكدت أن أسلم بأني لم أرها مطلقًا، وعندما حان وقت الانصراف، وكنا قد أنهينا العمل المطلوب في هذه البناية، خرجت من المدخل وعيناي تنظران تلقائيًّا صوب الباب. وجدت امرأة تخرج في تلك اللحظة من الباب تلمس شعرها بحرص شديد، والأخرى تصطحبها إلى الخارج في حديث وضحك لا ينقطعان، ثم أخرجت السيدة ورقة مالية وأعطتها إياها

سريعًا؛ فقبَّلت السيدة دون أن تتوقف عن الضحك والحديث. بعد عدة خطوات فارقتْ تلك السيدة، وفي الخطوات القليلة التي تفصلها عن العودة إلى المحل رأتني واقفًا أحملق فيها، فتعالت ضحكتها وسألتني: ألم تعرفني بعد؟ ألجمتني المفاجأة ودق قلبي بعنف. اقتربتْ مني وسألتني: «أين منزل جدك؟ أليس قريبًا من هنا؟»، أومأت برأسي موافقًا: «بلى». «ألم تتذكرني بعد؟»، حدَّقتُ في وجهها وحاولت استدعاء الذكرى مجددًا، ولكن بلا جدوى. قالت: «هل كنت تتمتع بالسرعة الكافية للانتصار في سباق أثناء طفولتك؟»، ازداد اضطرابي بعد سؤالها وكدت أتوسل إليها أن تكشف سريعًا عن تلك الذكرى المفقودة، وبقدر اضطرابي ازدادت متعتها وتعالت ضحكتها. تعرقتُ بشدة، ثم أشفقتْ عليَّ وقالت: «ألا تتذكر طفلة الجيران التي كانت تسابقك كلما أتيت لزيارة جدك وتسبقك في أغلب الأحيان؟». فغرت فمي من الدهشة واستغرقت فعلًا بعض الثواني لأتمكن من النطق. اكتنفتني مشاعر كثيرة ولم أميز منها سوى اضطرابي. أمسكت نفسي بصعوبة عن لمسها، ولو أُتيحت لي فرصة لعانقتها. رغم بساطة الذكرى التي لم تتخط حدودها أكثر مما قالته في جملة واحدة بسيطة، لكن ارتباطها بلحظات فرح طفولي أكسبها قيمة مضاعفة. أنا غير قادر معظم الوقت على تذكر طفولتي، بل أحاول نسيانها دائمًا. كما انقسم التاريخ إلى ما قبل الميلاد وبعده، أود لو أحدد مسار عمري بلحظة مفارقتي للمنزل؛ ما قبلها وما بعدها. بدأت حياتي الحقيقية منذ لحظة خروجي. يبدو أنها لاحظت اضطرابي الشديد، فمدت يدها لتصافحني. صافحتها

بحرارة. سألتني إن كنت لا أزال أتذكر اسمها، فقلت: «سهام». سألتها بتعجب: «كيف عرفتيني رغم مرور هذه الأعوام؟»، أجابت ضاحكة: «أتمتع بذاكرة حديدية. رأيتك تجلس أمام البناية على الشاشة الموجودة داخل المحل والمرتبطة بكاميرا المراقبة الموجودة بالمدخل. إنها موجهة إليك تقريبًا. طريقة جلوسك لم تتغير أبدًا. أذكر أني تعجبت منها ذات مرة بعدما أنهينا سباقنا وجلسنا لنستريح. قلت لك إنك تكاد تحطم جسدك. إنك لا تجلس، بل تسقط!». ضحكنا تلك المرة بشدة، وقلت لها إن ذلك وحده غير كافٍ لتذكري. واصلتْ قائلة إن ملامح وجهي لم تتغير كثيرًا، وأنها أمعنت النظر فيها أكثر من مرة عبر كاميرا المراقبة. انجلت لي الذكرى كاملةً، وحدقتُ في ملامح وجهها لأرى ماذا فعل الزمن بها، وقبل أن أفيق من غفلتي وجدتها تعتذر لأنَّ عليها أن تعود إلى عملها. سألتني أثناء ابتعادها: «هل سأراك ثانية؟»، فقلت دون تفكير: «بالطبع!». بعد بضع خطوات تذكرت أننا أنهينا العمل هنا في المنطقة. عاودني الاضطراب وقلت في نفسي: «أريد أن أراها ثانية... أريد ذلك بشدة». في تلك الليلة بالذات عاودني حنيني للرسم، وفارقني شعوري بالإنهاك اليومي لبعض الوقت. وجدت نفسي أرسم فتيات المجلات بطريقة أخرى جديدة. كنت أستخرج الإطار العام والملامح الأساسية للشخصية، وأعيد رسمها بروح جديدة تمامًا، فإذا النتيجة رقيقة رومانسية، لا رخيصة مثيرة. كنت أحاول أن أقبض على ما هو مخفي داخل تلك الصور الرخيصة، وأستخرج منها شخصية أخرى، أو قُل هي الشخصية ذاتها في ظروف أخرى. أُحدِّق في صور

تلك الفتيات في المجلات وأتصور رحلة طويلة بدأت منذ طفولتهن وحتى لحظة التقاط تلك الصور الفوتوغرافية الرخيصة، وأحاول إعادتهن إلى لحظات بريئة؛ فأُضفي بعض الملامح الطفولية عليهن. يتعلق الأمر في الأساس بالأعين. رغم كل ما تشي بضع ملامح الوجه المختلفة، وأوضاع الجسد المتنوعة، لكن نظرة العين تحديدًا تُقدِّم للرائي الانطباع الرئيس. استغرق مني الأمر ساعات طويلة، وعندما أفقت لنفسي كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة. حينها عاودني شعور الإنهاك، ولكن تلك المرة هاجمني بضراوة. لم أستطع حتى مد يدي صوب مفتاح النور لأطفئه، وانهار جسدي على الفراش وغرقت في النوم. في اليوم التالي انتقل العمل إلى منطقة بعيدة تمامًا عن محيط السيدة زينب. بدأنا العمل في إحدى مناطق حدائق الأهرام، وكل ما شغل ذهني يومها: هل سأتمكن من الانتهاء من العمل واللحاق بها قبل موعد انصرافها الذي لا أعرفه؟ وماذا إن ذهبتُ ووجدتها؟ ماذا سأفعل؟ كنت أعمل ذلك اليوم غائب الذهن تمامًا، ولم يلفت شيء نظري سوى عبثية اسم حدائق الأهرام، حيث تغيب الحدائق عن المكان غيابًا تامًّا. انتهى العمل في السادسة والنصف تقريبًا. قلت في نفسي: فرصة اللحاق بها تكاد تكون معدومة. أوصلني أحدهم إلى إحدى بوابات حدائق الأهرام، ومن هناك ركبتُ حافلة متوجهة صوب جامعة القاهرة. استغرق شارع الهرم واحده ساعة كاملة من فرط الزحام. ركبتُ ميكروباصًا آخر من جامعة القاهرة متوجهًا إلى السيدة زينب، ثم سرت مضطربًا صوب المكان المنشود. وجدتني أبطئ خطواتي عن عمد.

صوت يقول لي أني أندفع دون طائل، وصوت آخر يحثني على إلقاء نفسي في خضم التجربة. اقتربت من المكان. لا يزال العمل مستمرًّا في الداخل، ولكن كيف يمكنني التأكد من وجودها من عدمه؟ لم أجد أمامي سوى انتظار أن تخرج أي من العاملات بالمكان، وتتاح لي فرصة سؤالها. انتظرت نصف ساعة تقريبًا حتى خرجت الفتاة التي ناولتها كوب الشاي قبل يومين. سألتها عن سهام، فأخبرتني أنها في الداخل تستعد للرحيل. طلبت منها أن تخبرها بوجودي. انتظرت بضع دقائق ووجدتها تخرج. لم تفارق الابتسامة وجهها، ولم يَبْدُ كذلك عليه أثر للمفاجأة كذلك. صافحتها، وسألتها فجأةً بلا تردد ما إن كانت تود أن أصطحبها لنتناول الطعام. صمتت للحظة وسألتني: «ماذا سنأكل؟»، أجبتها: «كشري». ابتسمت وأومأت بالموافقة. سرنا معًا حتى المطعم، ولم نقل شيئًا تقريبًا طوال الطريق. أثناء تناول الطعام بدأت الحديث. سألَتني: «لا أظن أنك طلبت مني اصطحابك لتناول الكشري، ثم الانصراف وحسب دون كلمة». ارتبكت للحظة وطلبتُ منها أن تعذرني. بدأتُ حديثي في البداية بتحفظ، ولكن سرعان ما وجدت نفسي أحكي لها عن كل شيء. أنهينا أطباقنا وسرنا حتى مقهى قريب وجلسنا معًا. بدتْ متعطشة بشدة لسماع حكايتي وماذا حدث معي منذ أن عرفتني طفلًا يأتي لزيارة جده كل حين، تسابقه وتغلبه في أغلب الأحيان، وحتى تلك اللحظة. دفعتني إلى الحديث، لكني كنت في حاجة إليه بشدة. إني لا أتحدث مع أحد تقريبًا، وفي لحظة وجدت أحدهم يستمع إليَّ باهتمام، ويبدو أنه يستوعب ما أقوله جيدًا. حكيت

لها كل شيء تقريبًا، وتبدلتْ ملامح وجهها بين الحزن والشفقة والفرحة بحسب ما أحكيه. لم تقل عن نفسها الكثير، وأخبرتني أنها سوف تحكي لي كل شيء فيما بعد، لكنها تود الاستماع إليَّ أولًا. لم ألحظ مرور الوقت إلا حينما وجدتها تنظر في الساعة وتعتذر إليَّ عن المقاطعة قائلة إنها يجب أن تنصرف فقد تأخر الوقت. اعتذرت إليها، وطلبت منها رقم هاتفها. تبادلنا الأرقام، وعرفت أنها تعمل يوميًّا من الحادية عشرة حتى الثامنة. عطلتها الوحيدة يوم الاثنين. شكرتها بشدة، فسألتني عن سبب الشكر. أجبتها بأن السبب هو قبولها أن تقضي بعض الوقت معي اليوم. ربتتْ على يدي للحظة قائلة إنها تود رؤيتي مجددًا في الأيام القادمة. تعرقت بشدة إثر ارتباكي. نهضنا معًا، وسرنا حتى الموقف، ومن هناك ركبت ميكروباصًا متوجهًا إلى الجيزة حيث تسكن. توارت العربة عن عينيَّ وسط دموع انهمرت فجأةً.

* * * *

تنهمر الدموع وتُشوِّش الرؤية على البعض، بينما يمكن للبعض الآخر أن ينظروا عبرها بمزيد من الوضوح. لن نتيقن من حقيقة رؤيتنا إلا عبر اختبارات طويلة مؤلمة؛ ذلك إن كنا نريد الرؤية فعلًا. تتناثر الإغواءات في طريقنا كالألغام التي زرعها العدو، وأحيانًا نزرعها بأنفسنا لأنفسنا، حينما نكون أعداءً لأنفسنا.

يقول نظير ثابت: لم آخذ حديثه في البداية بالجدية اللازمة. طبيعي أن تكون لديه هو وغيره من سكان العزبة تخوفات من العمل الجاري

بجانبهم. صحيح أني رأيت عشرات الأهالي يأتون إلينا في الحي طوال الأشهر الماضية لإبلاغنا بتخوفاتهم من انفجار المياه في عدة مواضع دون سبب، ومن ظواهر أخرى مقلقة، لكنَّ شيئًا بداخلي كان يخبرني أنها محض مبالغات. لا بد أن الأمور ستُعالج بصورة أو بأخرى، ولا بد أن الخسائر ستكون معقولة ومقبولة. بالطبع لم يتمكن أي من المشتكين من لقاء اللواء رئيس الحي. أنا الموظف بالحي شخصيًّا لم أستطع لقاءَهُ طوال أعوام خدمتي التي بدأتْ قبل أن يتولى رئاسة الحي سوى مرات معدودة؛ فكيف يمكن إذَنْ لأحدهم أن يلتقيه؟ انصبت الشكاوى كلها على ظواهر مُقلِقة تنذر بعواقب وخيمة منذ بدء العمل بجوارهم في مشروع وندرفول لاند. الغريب في الأمر أني لم ألتفت إلى سكن أخي بالعزبة إلا حينما هاتفني اليوم. أخبرني أن الشقوق بدأت تغزو بعض المساكن المجاورة، كما أن المياه تنفجر أحيانًا في بعض البقاع، وأخبرني كذلك باختلاط مياه الشرب بالصرف أحيانًا. كان الهدف من مكالمته باختصار هو أن أعرف حقيقة الوضع من أجله. كل ما كنت أعرفه حتى هذه اللحظة أن مشروع وندرفول لاند هو مجرد كومباوند سكني فاخر صغير مجاور للعزبة، وكنت أعلم أيضًا أن إجراءات تشييده قد تمت بسرعة ملفتة للأنظار. بحثت عن أحد المهندسين لدينا في الحي وسألته عن الأمر. وجدته قد توتر قليلًا وأخبرني أنه لا يعرف شيئًا عن الأمر. لجأت إلى المهندس الآخر. أخبرته أن أخي يسكن هناك. صمت قليلًا ثم أخبرني أن علينا التحدث في مكان آخر. خرجنا فعلًا وجلسنا على مقهى قريب. سألني إن كان أخي يسكن هناك فعلًا؛

فأجبته بالإيجاب. طلب مني بوضوح أن أخبر أخي بوجوب مغادرة المكان. لم أفهم ماذا يقصد بذلك، لكنه كررها بوضوح. إلى أين يمكن لأخي أن يذهب؟ زوجته يتيمة ووحيدة وليس لديهم سواي. كيف يمكن أن ينتقلوا إلينا؟ مجرد التفكير في ذلك هو كابوس. عِشت أعوامًا غير قادر على التنفس بحرية أو التنعم بأقل قدر من الراحة في شقتنا الضيقة، وبدأت الأمور تتحسن بعض الشيء بسفر الصايع إلى الخليج، ويبقى أن تتزوج دميانة حتى يمكنني الانتقال إلى الغرفة التي ستتركها. الغرفة التي أقطنها مع زوجتي ضيقة جدًّا، والأغراض تملؤها في كل مكان دون نظام. الدولاب المتهاوي لم يعد يكفي شيئًا، خاصة مع تنامي هوس الولِّية بشراء الثياب والقماش والصابون والثياب التحتية بكل ما يتوفر لديها من مال. تحول الأمر إلى جحيم حقيقي؛ هوس قد خرج عن السيطرة تمامًا. جرَّبت كل شيء دون جدوى. محاولة إقناعها لا تجدي، وحتى الضرب والإهانة لا يجديان. تنفق مرتبها بالكامل في شراء تلك الأغراض، حتى أن استخراج غرض تحتاج إليه فعلًا من وسط هذه الأكوام الهائلة صار مستحيلًا، لذا تلجأ إلى شراء الغرض مجددًا. مع بداية كل يوم إما أن تأتيني وإما أن تذهب إلى دميانة لتطلب أي كمية من المال مهما كانت ضئيلة. يماثل سلوكها سلوك المدمنين بالضبط. تهت وسط هذه الأكوام الهائلة من الأغراض التي نحاول أنا ودميانة التخلص منها يوميًّا في غيابها؛ كميات هائلة احتلت كل بقعة من الشقة الضيقة من الأساس. برطمانات متراصة في كل مكان من أشياء لا نعرف كنهها في أغلب الأوقات، ونتنبه إليها بعد انتشار السوس في

الطعام الفاسد بداخلها. عِشت طوال الأعوام السابقة على أمل أن تفرغ غرفة دميانة وأخيها؛ فأنتقل إليها وأُحرِّم على الولِّية أن تضع فيها أيًّا من أغراضها، وبالتالي أنعم بأقل قدر من الراحة. والآن يخبرني المهندس بذلك؟! لا... لا بد أنه يبالغ. يكرر أنه لا يبالغ. يقول لي: تخيَّل أنك جالس على الرمال أمام البحر، ثم حفرت حفرةً عميقةً. تبدو جدران الحفرة متماسكة، ثم يأتي شخص آخر يجلس بجانبك على بعد مترين مثلًا، ويبدأ في الحفر هو الآخر. ماذا سوف يحدث؟ أجبته بأن جدران حفرتي ستتهاوى. هز رأسه بالإيجاب. سألته: كيف يُعالج الأمر في العادة إذَنْ؟ أخبرني أن ثمة إجراءات كثيرة للتأمين يجب أن تُتخذ، كحفر الخوازيق مثلًا حول العزبة وما إلى ذلك. سألته ولماذا لم تُتخذ مثل هذه الإجراءات؟ أيجهلونها؟ أشار بالنفي. لم أفهم. طلبت منه الاستفاضة، لكن ملامح وجهه تغيرت بشدة، وبدا أن أمرًا يعذبه بشدة. أخبرني أنه غير قادر على الاستمرار هكذا، وأنه تقدم بشكاوى ضد مديره أكثر من مرة، وأنه نجح في لقاء اللواء رئيس الحي، وتيقن أن كل ما يقوله معروف بالفعل. سألته: أتقصد أن الأمر ليس مجرد إهمال أو توفير مال؟ ظل ساكنًا لحظات، ثم أشار بالنفي. نهض من جلسته فجأةً وانصرف. عدتُ إلى منزلي في ذلك اليوم في حالة تيه كاملة. نمت نومًا ثقيلًا، واستيقظت على شعور خانق. شعرت كما لو أن الجدران تضيق بشدة. خرجت ثانية وأخذت أتجول بلا هدف. انتبهت لنفسي على ضحك بعض الأطفال الذين ينظرون إليَّ. تتبعت نظراتهم، فوجدت سحابة السروال مفتوحة ولون غياري الداخلي الأبيض يلوح بوضوح؛

فأغلقتها وجلست على أقرب دكة. خلال تلك المدة اتصل بي أخي أكثر من مرة، ولم أجب. التأجيل والتهرب لن يجدي نفعًا تلك المرة. حسبت الأمر أكثر من مرة. لا يمكنني الانقياد خلف تخوفات مهندس تبدو أفكاره مرتبكة إلى حد كبير. كيف يمكن ذلك؟ أيهدون العزبة على رؤوس أصحابها؟ حتى الإهمال لا يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة؛ لأننا نتحدث هنا عن أرواح الآلاف. ربما هناك إهمال، وربما ثمة درجة من الخطورة فعلًا، ولكن ألسنا جميعًا معرضين للموت في كل لحظة لأي سبب؟ حتى في هذه اللحظة التي أجلس فيها ساكنًا هامدًا يمكن أن تصعد سيارة فوق هذا الرصيف وتدهسني. إننا معرضون للموت في كل لحظة بسبب ومن دون سبب. إن أخبرتُ أخي بحديث المهندس سيأتيني لا محالة، ستتدمر حياتي وتُدهس آمالي تمامًا، وإذا لم أخبره ستكون هناك احتمالية كبيرة ألا يحدث شيء إطلاقًا. لن يحدث شيء بإذن الله، أنا واثق من ذلك. اتصلت به وأخبرته أن لا صحة للمخاطر المزعومة وأن إجراءات أمان سوف تُتخذ في الفترة القادمة، وإن كان هذا لن يحول دون بعض المشاكل التقنية التي سيجدون لها حلولًا سريعة. عندما سمعت التنهيدة التي بثها وأعربت عن ارتياحه، قلت في نفسي: لقد فعلتُ الأمر الصائب. نعم... نعم، إنه الأمر الصائب.

* * * *

انتقلت عدوى هذه التنهيدة إلى نظير وشعر بالاطمئنان، كأنه قد وجد حل المشكلة سريعًا. في الوقت ذاته كان مراد عبد العظيم يعايش مشاعر أخرى.

طرأت عليَّ في تلك الفترة تغيرات واضحة وغريبة. كنت أنام عادة سبع ساعات يوميًّا تقريبًا، وإن لم أنلها كاملة أشعر بإرهاق شديد طوال اليوم، ولا أستطيع التركيز. لكن منذ أن بدأتُ لقاءاتي بسهام، تَغيَّر جدولي اليومي وقل احتياج جسدي للنوم بصورة غريبة. كنت أنهي العمل وأمضي مسرعًا إليها. أنتظرها حتى تُنهي عملها ثم نمضي لتناول الطعام، وبعدها نجلس في أحد المقاهي نتحدث. كنت أشعر أن الوقت يداهم لقاءاتنا منذ اللحظة الأولى، وتنتهي قبل أن تبدأ. لم تكفني الساعتان اللتان نقضيهما معًا، وفي الآن ذاته لم يكن من السهل علينا أن نخرج في يوم العطلة الوحيد الذي يمتلكه كل منا؛ لأنه يُشكِّل الفرصة الوحيدة للعناية بشؤون عيشه: تنظيف ثيابه والراحة وما إلى ذلك. اختلاف يوم العطلة جعل عدد لقاءاتنا أسبوعيًّا يتراوح بين ثلاث وأربع مرات، بحسب الظروف. كنت أعود بعد اللقاء شاعرًا برغبة قوية في الرسم، وأستغرق فيه فعلًا ساعة إضافية ثم أغرق في نوم مليء بالأحلام، ثم أستيقظ وقد اكتنفتني مشاعر فياضة. أمضي إلى العمل دون أن أفكر سوى في أمر وحيد؛ لقائي المرتقب بها. مع تعدد اللقاءات بدأتْ تحكي لي عن نفسها. رغم أحاديثها الطويلة، لكن حكاياتها عن نفسها كانت مقتضبة إلى حد ما، أو يمكنني أن أقول أنها لم تكشف لي نفسها تمامًا كما فعلتُ معها. بعد مرور أسبوع واحد من لقاءاتنا كنتُ بمثابة صفحة مكشوفة تمامًا أمامها، ولكن العكس لم يحدث بالدرجة ذاتها. رغم ذلك انجرفت إلى التجربة بقوة شديدة. لم أتصور أبدًا أن الأمر لن يستغرق مني أسبوعين قبل أن أقول لها صراحة: أحبُّكِ. قلتها في اللحظة الأخيرة

قبل أن تفارقني وتركب الميكروباص عائدة إلى منزلها. لم يتسنَّ لي تقدير رد فعلها على تلك الكلمة إلا للحظات. ارتسم على وجهها تعبير غريب جدًّا أظن أني لن أنساه أبدًا؛ كأن وجهها انقسم، كممثل هائل القدرات قادر على التحكم في عضلات وجهه بمرونة معجزية، وأفصح نصفه عن فرحة ونصفه الآخر عن حزن، ثم غاب عني الوجه ولوَّحت إليَّ بيدها، بينما يتوارى الميكروباص عن أنظاري. لم أستطع مهاتفتها ليومين متواصلين، وبالتالي لم نلتقِ. قلت في نفسي سأنتظر اتصالها، وإن لم تتصل فهذا يعني أنها لا تود لقائي ثانية. في اليوم ذاته وجدت نفسي أتصل بها دون تفكير. كانت الساعة العاشرة تقريبًا. في البداية لم تُجب، وبعد أن تملكني اليأس وجدتها تعيد الاتصال بي، وقد اعتذرتْ عن عدم الرد في المرة الأولى لبعدها عن الهاتف. بعدها ساد الصمت بيننا لثوانٍ، حتى سألتني عن سبب صمتي. قلت لها: لا أعرف ماذا يتوجب عليَّ أن أقول. شعرت أني أراها تبتسم. تمتمتْ بهدوء أني أتصرف بصبيانية. قلت لها: الأمر ليس كذلك، لكنني كنت في حاجة إلى معرفة موقفها مما قلته. طلبتْ مني أن نلتقي غدًا بحيث يتسع لنا المجال للحديث وجهًا إلى وجه. عادة أجد ساعتي البيولوجية قد أيقظتني قبل موعد المنبه بخمس دقائق، لكنني في ذلك اليوم أفقت على صوت المنبه بصعوبة شديدة. نعاس رهيب وشعور بإنهاك مفزع وآلام قولون شديدة. تحاملت على نفسي رغم ذلك، وذهبت إلى العمل. لا أعرف كيف صمدت حتى نهايته، وعندما وصلت إلى مكان اللقاء كنت في حالة مزرية. أدركتْ ذلك من نظرتها الأولى. للوهلة الأولى

شعرتْ بالخوف، وسألتني عما ألَّم بي، أخبرتها أنه إنهاك وحسب. جلسنا وبدأتْ حديثها. حكت لي عن الظروف الضاغطة التي تحياها في المنزل، والضغوط التي يمارسونها عليها لتزويجها سريعًا؛ الأمر الذي أسفر عن خطبة فاشلة انتهت منذ عام واحد. أضافت أن الأمر الذي أدهشها هو أن بعودتها إلى المنزل في ذلك اليوم اندلع شجار عنيف مع أبيها بسبب تقدم شخص ما للزواج بها، ورفضها العرض. وضَّحت لي أنه شخص لا تعرفه من الأساس، وأن أباها يرى فيه الفرصة الأمثل ماديًّا حيث أعلن ذلك المتقدم أنه سيتكفل بكل شيء. قالت ذلك بتحرج واضح. سألتُها عن حقيقة مشاعرها صوبي، فقالت بارتباك: لا أستطيع أن أجاريك في تهورك وأصف مشاعري صوبك بالحب، ولكن من المؤكد أني أشعر براحة شديدة في حضورك.. أنا في حاجة إلى بعض الوقت لا أكثر. سألتُ: وما المانع؟ قالت: أنا عاجزة تلك المرة عن الاستمرار في الشجار مع أبي. لم أفهم مقصدها. قالت بوضوح إننا في حاجة إلى إعلان خطبة رسمية حتى أستطيع التخلص تمامًا من هذا المتقدم؛ لأني أدرك أن الأمر لن يمر بسلام مع أبي، وبالتالي أحتاج إلى حجة حقيقية لمنع هذا الزواج. سألتُ بحزن: «حجة؟!». فأضافت مسرعة أنها تشعر صوبي فعلًا بمشاعر مختلفة، لكنها في حاجة إلى مزيد من الوقت، وأن الخطبة ستكون الإجراء الوحيد الذي من شأنه أن يوفر لنا ذلك، وإلا ستتعقد الأمور، ولن تكون هناك فرصة لمزيد من اللقاءات.

* * * *

مع ثِقل تلك الأفكار التي دارت في رأس مراد عبد العظيم، كان نظير ثابت يعاني من نوم ثقيل جدًّا. يقول: لا أستطيع الاستيقاظ منه بسهولة، وكثيرًا ما أحلم أني نائم أحلم بكابوس ما، وأود أن أوقظ نفسي بشدة دون جدوى، وحينما يصل الكابوس إلى ذروته أستيقظ من حلمي وأشعر بضيق شديد جدًّا، ويستغرق الأمر مني فترة طويلة لأكتشف أني لا أزال نائمًا. يؤدي ذلك إلى أني عندما أستيقظ حقًّا أشعر أني نائم، ويصيبني الشك في الحد الفاصل بين يقظتي ونومي. الغريب أني أتذكر تفاصيل كل ذلك بوضوح شديد، رغم أني عادة كنت أغرق بسهولة في نوم عميق سلس خالٍ من الأحلام في أغلب الوقت – عدا الجنسية – ويكون استيقاظي منه سهلًا. أشعر بدوار دائم. في المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى موقع بناء، وبعد أن انتظرت لدقائق، وأخرجت هاتفي المحمول لمحت أحدهم ينظر إليَّ شذرًا بغضب شديد، وما إن بدأ يتوجه صوبي حتى تملكني الخوف وانصرفت فورًا. قلت في نفسي: ربما عرف حقيقة الأمر . لا بد أن أحد المقاولين مثلًا أخبر الآخرين بما حدث معه. في اليوم التالي ذهبت إلى العمل، وفور الاقتراب من الباب وجدت مجموعة من المقاولين على الباب. التفت سريعًا وحثثت خطاي. لا أعرف إن كانوا في انتظاري أم في انتظار غيري. تناهت إلى أُذُنَيَّ أصوات زاعقة، وظننت أن مشاجرة ضخمة قد نشبت بالمكان. قاربت سرعة خطواتي على الركض تقريبًا. تمالكت أنفاسي بعدما توقفت، وقلت لنفسي: ربما الأمر لا يتعلق بي... نعم، الأمور كلها سيئة في الفترة الأخيرة، ولست وحدي مَن يحاول

الاستفادة، بل أنا الوحيد الذي لا يجبر أحدًا على الدفع ولا يقول شيئًا من الأساس. لن أذهب اليوم إلى العمل، وليحدث ما يحدث. وصلت إلى المنزل مبكرًا إذَنْ، وفور أن فتحت الباب حتى رأيت دميانة وأمها جالستين واجمتين. دق قلبي بعنف. نظرتْ إليَّ دميانة بهلع غريب، أما أمها فأمسكت بطفاية زجاجية وألقتها صوبي. تفاديتها في اللحظة الأخيرة؛ فتحطمت من خلفي. في لحظة التحطم عاودني مرأى الأَسقف المتهاوية في حلمي، والإناء والكأس الأقدسين، وشعرت أن هذا نذير بتحطم الكثير. ومضت أمام عينيَّ لحظات عديدة وأوجه كثيرة، وشعرت ثانية أن الجدران تضيق، وتشوهت ملامح الولِّية تمامًا أمام عينيَّ، وتضاءلت دميانة حتى لم أعد قادرًا على رؤيتها وأظلم كل شيء. ما إن اقترب شعاع الضوء من عيني حتى راودني شعور شديد الثِّقل... ما الذي يضمن لي تلك المرة أني أفيق حقًّا؟ كوابيس متداخلة لم أعد أميز فيها حقيقة من باطل. شيء دفعني إلى فتح عيني رغمًا عني. وجدتني مستلقيًا على فراشي، وهما جالستان أمامي في صمت، لكن ملامح أم دميانة تغيرت فعلًا. لم أسألها عن سبب إلقائها بالطفاية في وجهي، ولم تسألني عن سبب فقداني المفاجئ للوعي. لا أستطيع وصف ماذا حل بها تحديدًا، لكنها ليست الشخص ذاته. حاولتْ دميانة التحدث في البداية لكن صوتها خانها. حافظتُ على صمتي وهدوئي؛ فأخبرتني أمها بما حدث بوضوح واختصار. ولكن هل يمكنني أن أصدق ما أسمعه؟ كيف تحاولان إقناعي بأن دميانة حامل من أبونا أبرام؟ شخصيًّا فوجئت بردة فعلي؛ لم أفعل شيئًا. تصورت أنه من

المفترض أن أثور وأهاجم الفتاة وأضربها أو ما إلى ذلك، لكن وقع الصدمة جعلني غير قادر على لملمة شتات نفسي. تبعثرت في كل اتجاه، وحاولت أن أتحدث أو أقول شيئًا لكن ثقلًا شديدًا لازم فمي فلم يخرج صوتي. أشرت لهما أن تخرجا من الغرفة وتطفئا النور. القلق يرتسم على وجه دميانة، بينما أمها تبدو مشوهة تمامًا. ليس هذا وجهها أبدًا. نهضت من على فراشي، ووضعت رأسي تحت ماء الصنبور، ثم عدت إليهما. تخبرني دميانة باكية أنها تسمرتْ ولم تستطع فعل شيء. تعلم أني أريد أن أسألها كيف حدث ذلك، لكن حديثها عبارة عن نهنهة طويلة وسط نوبات بكاء لا تنقطع. تقول إن الأمر في البداية بدأ بإصراره على أن تأتيه للاعتراف بشكل متكرر. كان يدفعها دفعًا إلى الحديث عن أمور جنسية متعللًا بضرورة التطهر من هذه الخيالات المريضة. شعرتْ بالاضطراب الشديد حتى إنها لم تعترض في البداية حينما ترك مكانه وجلس بجانبها. لاصق جسده جسدها وأحاطها بذراعه قائلًا إنه يتفهم آلامها وإن بإمكانها أن تبكي. دفعها إلى أحضانه. في المرة التالية احتضنها بقوة أكبر. مرة تلو الأخرى بدأت ذراعاه تتحسسان جسدها. كانت تراه يفعل ذلك وتشعر بحركة يديه ولا تصدق، حتى تركتْ مكتبه ذات مرة وهربت. امتنعت في تلك الفترة عن الذهاب إلى الكنيسة لأسبوعين متتاليين، وحينها أرسل إليها رسالة على هاتفها المحمول يهددها بأنه سيفضحها في الكنيسة ويقول إنها حاولت إغواءه إن لم تأته غدًا في الموعد المحدد. أُصيبت بالهلع وذهبتْ إليه. طمأنها وأخبرها أنه لا يُكِنُّ لها سوى مشاعر أبوية، وأن من واجبه ككاهن ومرشد روحي

لها أن يعرف دقائق أفكارها وأحاسيسها حتى يمكنه أن يرشدها فعلًا. عند انصرافها أخبرها بلغة تمزج بين الملاطفة والتهديد أن عليها أن تأتيه ثانية في اليوم التالي كي يُكملا حديثهما. لم تذهب. رآها يوم زفاف ابن عمها؛ اليوم الذي ذهبتُ فيه أنا أيضًا إلى الكنيسة. لا أصدق أني رأيته بعينيَّ يسحبها إلى مكتبه ولم أفعل شيئًا. همس في أذنها أن تذهب معه حالًا وإلا أخبرني! ليته أخبرني! ذهبتْ معه، وفور أن دخلت مكتبه حتى أغلق الباب بالمفتاح وهجم عليها. حاولتْ منعه بكل قوتها، لكن دفعة قوية منه جعلتها تسقط، واصطدم رأسها بعنف على المكتب، وفقدت وعيها للحظات. في هذه اللحظات كان قد بدأ فعلته. فور أن وصل الحديث إلى لحظات هجومه عليها حتى صرختْ وانفجرتْ في البكاء، ثم أفرغتْ ما في جوفها. حينما كررت سؤالي عن سبب عدم إخبارها لي بالأمر، ردت بأنها آملت ألا يسفر الأمر عن شيء، وأنها شعرت بالذنب الرهيب. كانت غير واعية تقريبًا بما يحدث، وفقدت قدرتها على المقاومة تمامًا من هول المفاجأة والخوف بالإضافة إلى عنف اصطدام رأسها. أنهضها، وهندم ثيابها بنفسه، وحذرها من التفوه بكلمة. اختصر الأمر في النهاية قائلًا: إن حدث شيء ستكون كلمتي أمام كلمتك، فتُرى مَن سيصدقون؟ لم أعرف تلك التفاصيل إلا عبر ساعات طويلة من الحكي المتقطع بالبكاء والانهيار. لم تنبس أمها بكلمة، تارة تنظر إليها بشفقة وتارة تنظر إليَّ باشمئزاز. كانت هي من لاحظت ذات يوم تغير حالة دميانة الصحية. في البداية لم تقل شيئًا، ثم ازدادت مراقبتها لها حتى راودتها الشكوك. لم تصمد دميانة لاستجواب

أمها، فلم تطق حِملها الثقيل، لكن الخوف شلَّها. أجرت أمها لها اختبار حمل، ومن ثم اتضح أنه إيجابي. حدث ذلك اليوم. انسحبتْ دميانة إلى غرفتها ووجدَّتني بصحبة أمها. أول ما فكَّرتُ فيه كانت طريقة الانتقام من أبرام. أعادت أمها عليَّ كلمات أبرام لدميانة: كلمته أمام كلمتها، فمَن سيصدقون؟ أما عن شكوته لأسقفه، فاللقاء ذاته مع الأسقف أمر في غاية الصعوبة، ثم ماذا نتوقع من لقاء كذلك؟ الأهم من كل ما سبق: ماذا سنفعل في الجنين طوال تلك الفترة؟ أبسط شيء سنواجهه حينها هو رواج إشاعات عن دميانة وعن أن هذا طفل شخص آخر. إننا في ورطة علينا علاجها أولًا. عدت إلى دعوة فرح ابن أخي ووجدت أن تاريخ الحادث قد مر عليه أكثر من شهر. كانت فكرة التخلص من الجنين أمرًا غير قابل للنقاش من طرفينا، وأظن أن دميانة لن تعارض. حتى إن عارضتْ سأجبرها على ذلك، فما الحل؟ هل يمكن لأي منا تحمل استمراره؟ كارثة لا يمكن حتى تخيلها. شعرتُ أني أحيا داخل قصة غير حقيقية... تلك الأحداث التي لم نتصور أبدًا أن تحدث، تحدث! التفكير الآن ينحصر في طريقة التخلص من الجنين. استغرق الأمر منا عدة ساعات عبر البحث على الإنترنت، حتى توصلنا إلى الحل الدوائي. لا يمكننا تحمل التورط في متاهة شبكات العيادات والأطباء المتخصصين في مثل هذه الأمور، وطالما أن مدة الحمل لم تتجاوز الشهرين لذا يمكننا اللجوء إلى أحد هذه الأدوية. حدَّدنا الموعد في الغد، واستعددنا. ذهبت إلى صيدليات مجهولة لا يعرفني أصحابها، واشتريت فعلًا دواء ميزوتاك بصعوبة شديدة، وبثمن

يفوق سعره الحقيقي. دميانة الآن في حالة استسلام كامل، سلَّمتْ قيادها إلينا، ولا تسأل أو تستفهم عن شيء. أخبرناها أنه ربما تحدث بعض الأعراض الجانبية، وربما يتم الأمر بسهولة. حاولنا طمأنتها وتناولت الدواء. الوقت يمر بينما نراقب التطورات في صمت لا تقطعه سوى أصوات عقارب الساعة التي لم نكن نلاحظها قبلًا، وتأوهات دميانة. ارتفعت حرارتها، وشعرت بآلام ببطنها، ثم أُصيبت بإسهال. انتظرنا وانتظرنا. حل الليل ولم يتم الأمر بعد، ووجدتني قد غصت في نوم كئيب ثقيل أفقت منه على أم دميانة تهز جسدي بعنف. دخلت إلى غرفة دميانة سريعًا فوجدتها تنزف. خرجت سريعًا لأحضر سيارة أجرة، وما إن انتظرتْ أمام العمارة حتى دخلتُ وتناولتُ أغراضي والمال الذي سحبته اليوم من ماكينة البنك تحسبًا لهذا الظرف. حملتُ دميانة، وتوجهنا جميعًا إلى مستشفى حكومي بالمعادي. طوال الطريق كنت أحاول التحدث مع دميانة وطمأنتها. دخلنا إلى قسم الطوارئ سريعًا. شعور مفزع بالخوف والغضب. توارت عنا دميانة مع الأطباء، وفي تلك اللحظات الرهيبة شعرت بمدى انفصالي عن أمها. كنت أنظر لها كمخلوق غريب لا أتذكر متى عرفته. لا يمكنني حتى تذكر كيف كنت منجذبًا إليها بتلك القوة في فترة الشباب. أكثر من خمسة أعوام لا أفكر في شيء سواها، أعمل في وظيفتين مختلفتين لأتمكن من تدبير مصاريف الزواج، ثم لا شيء... لا شيء. كيف لذلك أن يحدث؟ لم أكن كاذبًا، وأظن أنها لم تكن كذلك. كيف يمكن أن تتسلل الرتابة لتتملك كل ثنايا الكيان، ليمر الوقت، ويدرك كل منا أنه قد أصبح

شخصًا آخر، وأن الآخر الذي كان يعرفه لم يعد معروفًا له، مثلما لم يعد كل منا معروفًا لنفسه. نظرة واحدة إلى المرآة تخبر صاحبها أنه لم يعد هذا الشاب اليافع. أهي قسوة الظروف؟ لا، لا يمكن لها أن تفعل ما فعلته بنا. ثمة أمر آخر. تعذبني تلك الفكرة منذ أعوام، واليوم تواجهني بقسوة مفزعة. ربما أن ما مكَّننا تحديدًا من تدبر ماذا سنفعل مع دميانة في هذا الظرف هي البرودة التي تكتنفنا، وبالتالي كنا نتناقش معًا مناقشة الغرباء، وهي مناقشة يمكن أن تتسم بالمنطق. هي التي أخبرت الأطباء بقصتها المُختلقة عن سبب الإجهاض (الطبيعي)، وهي التي أعطتها دبلتها لترتديها؛ فتبدو كامرأة متزوجة. في مثل هذه الظروف لا يمكن للأطباء غالبًا اكتشاف السبب الدوائي، ومن ثم يصعب التعرض لأي مساءلة قانونية. حتى اختيار المستشفى المناسب في حالة الطوارئ ناقشناه بهدوء. قلت لنفسي حينها: هذا الوجه ليس وجهها، لكني أدركت بعدها أن وجهي هو الآخر لم يعد وجهي. بينما الوقت يمر بطيئًا لا يمكن تصوره، ودميانة لا تزال متوارية مع الأطباء، وصلتني رسائل من الصايع على الواتس آب.

* * * *

بحسابات الزمن المتوهم يمكننا أن نقول إن رسائل «الصايع» وصلت إلى نظير ثابت بعد وصول رسائل من نوع آخر إلى مراد عبد العظيم. تختلف طبيعة الرسائل التي وصلت إلى مراد من حيث كونها رسائل نظرات وحدس، لا رسائل على الواتس أو أي تطبيق الكتروني آخر.

حدَّق مراد في عينَي سهام طويلًا، حتى أحرجها الصمت، وتعرقتْ للمرة الأولى في حضوره، وأدركتْ أنه بغض النظر عن تكرارها لتلك الادعاءات سابقًا، لكن الأمر مختلف بعض الشيء مع مراد عبد العظيم. حدس أخبره أن يهرب، لكنَّ وازعًا أقوى دفعه إلى مزيد من الانغماس في التجربة. وافق دون تفكير طويل. في ذلك اليوم تحديدًا راودته بذور فكرة فنية جديدة. اكتملت ولادة الفكرة في اليوم التالي. كان يوم عطلتها وبالتالي لم يلتقها، ووجد رغبة تستبد به للذهاب إلى حي الحسين. كانت الشوارع فارغة بصورة ملفتة في ذلك اليوم بسبب إحدى المباريات التي التف عدد ضخم حول الشاشات لمشاهدتها، وبالتالي كانت التجمعات تتركز عند المقاهي أو المنازل وحسب. تمشّى مراد كثيرًا في أزقة الحي القديم بلا هدف، وعرج على خان الخليلي وألقى نظرة على المعروضات الموجودة بالمحلات المتلاصقة بالمنطقة. توقف فجأة أمام إحدى اللوحات؛ لوحة مرسومة على الطراز القبطي. لفت نظره إليها في البداية تحديق زوجين أجنبيين فيها، ومساومتهما البائع على سعرها. حدَّق مراد طويلًا في الأعين الواسعة العميقة والهالات النورانية المحيطة بالرؤوس. للوهلة الأولى شعر بنوع من السذاجة الفنية تكتنف تفاصيل اللوحة، ولكن بمرور بعض الثواني على التحديق في تفاصيل اللوحة، أدرك أن هذه السذاجة المتوهمة تحديدًا هي سر فتنة اللوحة. أغمض عينيه واستدعى إلى ذهنه مرأى سهام الجالسة أمامه في لحظات الصمت الأخيرة التي سادت بينهما بعد أن طلبت منه إجراء خطبة سريعة. شعر أن ملامحها تتحول تدريجيًّا إلى

ذلك الوجه المرسوم القابع أمامه الآن، أو ربما ليس إلى ذلك الوجه تحديدًا، لكن إلى وجه آخر شبيه به. عندما فتح عينيه، كان الزوجان قد اشتريا اللوحة بالفعل، ولم يعرف مراد ثمنها. انصرفا بالفعل. عاد مراد إلى غرفته في تلك الليلة وبوادر خطة فنية جديدة تختمر في ذهنه. بدأ تحضيراته واسكتشاته الأولية في تلك الليلة، وفرَّت منه الساعات سريعًا. نظر إلى عقارب الساعة، فوجدها قد تجاوزت الثانية صباحًا. نحَّى عنه أدواته وأغمض عينه وغاص في نوم عميق. في اليوم التالي لم يذهب إلى عمله، واتصل بمديره متحججًا بالمرض، وبدأ عمله فورًا على اللوحة. فرَّت منه الساعات مجددًا، وأفاق على شعور بالجوع والصداع الشديدين. ترك أدواته وخرج ليبتاع ما يتناوله. شرب بعدها بعض القهوة واللوحة أمام عينه، يحاول أن يستنطق تفاصيلها الغائبة لتظهر بمزيد من الوضوح في ذهنه. عاد إلى العمل مجددًا. بحلول المساء اتصل بسهام ليعتذر عن لقائهما اليوم. تناول لوحته ولفها بعناية، وتوجه إلى خان الخليلي. بحث عن البائع الذي رأى عنده تلك اللوحة القبطية، وعندما وجده اقترب منه مباشرة، وكشف عن لوحته، وسأله هل يود شراءَها. همَّ الرجل بالرفض المبدئي قبل أن تقع عيناه حتى على اللوحة، لكن مراد كشف عنها أمام عينيه مباشرة، فلم يسع الرجل سوى أن ينظر إليها باهتمام. حدَّق فيها للحظات، ثم سأل مراد عن إن كان هو الرسَّام، فأومأ له بالإيجاب. أمعن الرجلُ النظرَ في اللوحة مجددًا، وطلب من مراد الجلوس. تناول منه اللوحة ليراها في ضوء أفضل. رشف بعض الشاي، وأخبر مراد أنه ربما يحتاج إلى

كمية كبيرة من النمط ذاته. سأله مراد: القبطي؟ فأجاب الأخير إن هذه اللوحة ليست فنًّا قبطيًّا خالصًا، لكن خصائصه واضحة فيها. أوضح له الرجل أن تفاصيل الطلبية من عدمها ستتحدد وفقًا لرغبة بعض منافذ البيع الأخرى التي يُورِّد إليها بعض التحف واللوحات. طلب من مراد أن يترك له اللوحة ورقم هاتفه، وسيعاود الاتصال به في غضون يومين على أقصى تقدير. وافق مراد وعاد إلى غرفته شاعرًا بإنهاك شديد. نام فور عودته دون أن يغير ثيابه أو يتناول أي طعام.

* * * *

بدأ نظير ثابت قراءة الرسالة: «أبي غير الحبيب، صدفة بيولوجية حمقاء جعلتني ابنك، لكن رغم كل شيء لدينا الآن اختيار أن نتجاهل هذه الصدفة، بل ونرفضها ونبصق عليها. ربما وجدنا أنفسنا مجبرين على قبولها والرضوخ لها طوال تلك الأعوام الماضية، ولكن الوضع تغير الآن. أعرف أنك كنت تحاول طوال الوقت أن توفر لي فرصة للسفر، وأنا أشكرك حقًّا على ذلك، وأقدم لك جزيل امتناني وعرفاني. هل فكرت للحظة واحدة في المسؤولية التي ستحملها على كاهلك حينما جامعت أمي لتلقي بداخلها نواة كياني؟ أظن أن هذا لم يحدث، وأظن أنك لا تجيد التفكير بهذه الطريقة من الأساس. على مدار أعوام راقبت أفعالك وأفكارك تجاهي وتجاه أمي ودميانة، ولا أزال غير قادر على استيعاب هذه التركيبة المعقدة المخزية. أتذكر منذ الطفولة المبكرة ملاحظتي لطريقة سيرك في الشارع بشكل

متقدم دائمًا عن أمي. تحني رأسك قليلًا وتشبك يديك خلف ظهرك وتتقدمها بخطوات. لم أفهم وقتها لماذا لا تسير بمحاذاتها، والأغرب أنها لم تحاول السير بمحاذاتك. رويدًا رويدًا لم تعد تسير في طريقك، أو ربما لم تعد تسير من الأساس. توقفتْ حركتها، واحدودب كتفاها وبطأت سرعتها حتى توقفت تمامًا. كيف يمكنك تدريجيًّا وأنت بهذا الضعف الشديد أن تلغي كيانًا إلى هذه الدرجة؟ هذه هي التركيبة المعقدة المخزية التي شغلتني كثيرًا. لم يتطلب الأمر مني أعوامًا طويلة حتى أستطيع مقاومتك ورسم حدود فاصلة بيننا؛ لأنك شديد الهشاشة. في كل مرة كنت أفعل ذلك كنت تتوجه لها بالإهانة. لا تفارقني ذكرى ذلك اليوم الذي حاولت صفعي؛ فأمسكت بيدك ودفعتك بشدة. كنت على وشك السقوط، وسندتك هي، فالتفتَّ إليها وصفعتها! لم تُجِبك بشيء وانسحبتْ إلى المطبخ في صمت، ونظرتَ إليَّ نظرتك الحقيرة، كأنك تقول لي: لا أزال أستطيع التعدي على أحدهم. ماذا حدث طوال تلك الأعوام حتى تسيطر على كيانها بهذه الطريقة؟ أكانت شديدة الضعف؟ أظن أن الأمر يتعلق بالإهانة المستمرة التي تجعل صاحبها يصدق بعد مدة طويلة أنه يستحقها فعلًا. جحيم من التفاصيل المنهكة جعلتها رويدًا رويدًا تنسى أنها إنسانة. كنت تراقبها كل يوم لتتأكد من عدم استقلالها سيارة أجرة ذهابًا إلى العمل أو إلى أي مكان آخر. مهما أصابها التعب، لا بد أن تستقل أرخص أنواع المواصلات. حتى في اليوم الذي هاتفتك فيه وأخبرتك أن دوارًا شديدًا ألم بها وهي في

العمل وطلبت منك أن تأتي بالسيارة لتقلها لم توافق. تصحو صباحًا وتخرج لتلميع سيارتك العتيقة الخردة، لكنك لا تتحرك بها إلا إلى مشاويرك الخاصة. تبدأ حربك اليومية منذ الصباح الباكر، وبعدما تعود من العمل تظل مستلقيًا أمام التلفاز ناعسًا. يأتيك العشاء وتظل تأكل، وتُقلِّب قنوات التلفاز بين القنوات الدينية والإخبارية. وبسبب نومك الدائم تقريبًا تستيقظ في ساعة مبكرة جدًّا وتبدأ الحرب. تسير بخطوات ثقيلة وتصطدم بأغراض متعددة، وتدخل المطبخ ويرتفع صليل الأواني وخشخشة الفرن ويسقط منك براد الشاي، ويتعالى رنين المعلقة أثناء تقليب السكر في كوب الشاي الصباحي. تدخل الحمام ويتعالى صوت البصاق والنحنحة والنف والعطس والشطَّاف. كان من الممكن أن تظل بالنسبة إليَّ لغزًا مستغلقًا على الأفهام لولا انفصالنا الشديد في الأعوام الأخيرة؛ الأمر الذي مكَّنني من مراقبتك مراقبة المرء لشخص غريب، ورصد طبيعة عالمك الضيق الدنيء؛ ذلك العالم المشيَّد على ابتسامة صفراء ترتسم على وجهك أمام ضابط يوقفك في كمين المرور، وابتسامة حسد وتقدير لكاهن أو أسقف يمر من أمامك بسيارته الفارهة؛ فتحسده وتكتم أحلامك في صمت. تتناول مرتبك الضئيل، وتبحث عن أي إضافة من هنا أو هناك، وتواسي نفسك بلقاء يوم الخميس الجنسي ومباراة كرة محلية رخيصة وشعائر دينية تحول بينك وبين تغيير مفهومك للعالم كله، وجنيهين توفرهما عندما تشتري السمك وتطلب من البائع عدم تنظيفه، فبإمكان زوجتك أن تنظف السمك! عندما يتعلق الأمر بشراء

طلبات المنزل تتفنن في شراء أنواع معفنة رخيصة من الخضروات والفاكهة. تكرر دائمًا أن حياتك مُكرَّسة لنا، لكن الأمر بقدر ما يتسم من صدق ظاهري إلا أنه كاذب. إنك لا ترانا إلا امتدادًا لك، وبالتالي ترتبط أهمية كل منا بقدر ما نُشكِّله لك. أثناء طفولتي كنت تُحرِّم عليَّ شراء الفاكهة والخضر من السوق القريب، وترسلني إلى سوق بعيد ينهكني السير إليه ذهابًا وإيابًا تحت أشعة الشمس الحارقة لتوفير مبلغ لا يتخطى جنيهات بسيطة. عند عودتي يبدأ الحساب: «ها الطماطم بكام؟ والخيار؟ غبي... عند البائع الآخر أقل بنصف جنيه الكيلو». عالمك الصغير الدنيء المشيَّد فوق المتناقضات يكفيك تمامًا، ولا تواجه فيه أي صراعات. إنك لا تشعر بأدنى مشكلة حينما تصطحبني إلى امتحانات الثانوية العامة -رغم شعوري بالخجل من مرافقتك لي، ومطالبتي لك بالذهاب وحدي- وتجعلنا نمر على الكنيسة لنصلي قبل الامتحان، ثم توصِّي مراقب اللجنة عليَّ وتضع ورقة مالية في جيب فرَّاش الدور عسى أن يساعدني في الغش. شجارات مستمرة مع أمي للعناية بنظافة الشقة، وفي الآن ذاته تلقي القمامة باستمرار في مدخل العمارة. تقلب الدنيا رأسًا على عقب من أجل التهرب من دفع مستحقات العمارة الخاصة بالتنظيف أو الصيانة، وتقلبها كذلك حينما تزداد أجرة المواصلات نصف جنيه مستحقة بعد زيادة أسعار البنزين، لكنك تفرح بشدة إن استطعت إتمام أي مصلحة رسمية بدفع رشوة. حينما ترسلني لإنهاء مصلحة توصيني بشدة بدفع الرشوة حتى لو لم يطلب الرجل ذلك. ابتسامتك

الصفراء التي ترتسم على وجهك حينما تستقل المصعد بصحبة أحدهم رغم عدم دفعك لرسوم المصعد تكشف عن الكثير. قلت لهم إنك لن تشارك ولن تطلب منهم شريحة المصعد الإلكترونية، لكنك تكون مستعدًّا دائمًا للانتظار أمام المصعد دقائق طويلة حتى يأتي أحدهم وتصعد بصحبته. تشكل هذه الانتصارات التافهة عالمك الضيق والدنيء. كل مَن يحاول كسر إطار هذا العالم وزعزعة أركانه تكرهه بشدة. ذات يوم كنا نشاهد التليفزيون معًا، وذُكر حادث القبض على مجموعة من الشباب الذي قاموا بوقفة احتجاجية سلمية. وجدتك تسبهم، فسألتك: كيف تفعل ذلك، ألا تخشى أن يحدث الأمر معنا لأي سبب؟ قلت لي: لا يشغلني الأمر ما دام بعيدًا عن طيزي! في هذا العالم الضيق الدنيء فقدتْ أمي حياتها خطوة خطوة. لم تستسلم بالطبع لك مرة واحدة، لكنك -والحق يُقال- مثابر في تحطيم الآخرين. ثمة حادث أخير فاصل في حياتها. تحملتْ كل إهاناتك لإجبارها على قص شعرها الطويل وظلت صامدة. كانت هذه متعتها الأخيرة: أن تجلس أمام المرآة وتمشط خصلات شعرها الطويلة الناعمة التي تصل ربما إلى وسطها. عندما استيقظتْ ذات يوم؛ فوجدت خصلاتها مقصوصة مستلقية بجانبها على الفراش، صرختْ بأعلى صوت. هُرعتْ إليك في حالة هيستيرية وألقت بنفسها عليك، وأسفر الأمر عن خربشات في وجهك وتورم بوجنتها إثر صفعاتك. من هذه اللحظة استسلمتْ تمامًا. انسحبتْ منها قوة الحياة مع خصلات شعرها المقصوصة. انعزلتْ عنك تمامًا

وأُصيبت بهوس شراء المنظفات والأقمشة وأغراض المطبخ. تحولت الشقة الصغيرة إلى مخزن يضم أشولة وكراتين لا تُعد ولا تُحصى في كل ركن منه. تستجدي المال منك ومني ومن دميانة، ويتلاشى من يدها في ثوانٍ قليلة. تعود من العمل لتدخل غرفتها وتغلق عليها. وأنت بالطبع لا تدلف إلى هذه الغرفة الضيقة إلا وقت النوم، وحينها تكون هي قد استغرقت في نوم ثقيل بلا أحلام. رغم كل هذه العزلة لم تتورع عن ممارسة طقسك الدنيء كل يوم خميس.

في البداية كنت أشعر بتعاطف شديد مع أمي، تحول مع الوقت إلى نفور من فرط استسلامها. قلت لنفسي إن الموت أهون من هذه الحياة، ووضعتُ عدة مخططات لمفارقتكم بأي شكل، ولكن التفكير في دميانة كان يجعلني أتراجع. بمرور الوقت علمتُ أن بقائي لن يقدم إليها شيئًا. أفضل ما يمكنني فعله هو أن أرحل، وأحاول توفير فرصة لها للخروج من هذه البلد هي أيضًا. قبل تدبير فرصة سفري الأخيرة كنت على وشك الرحيل فعلًا والعمل في إحدى الفنادق في مدينة دهب. بوصولي إلى الكويت وعملي بإدارة حسابات الكنيسة، أدركتُ أنها مسألة وقت قبل أن أهرب من هذا البلد مرة أخرى. هذه الأجواء اللعينة الخانقة، والسرقات الرهيبة والمستمرة! أبناء كاهن الكنيسة هنا يدرسون في مدارس دولية لا يرتادها إلا الأثرياء. الكنيسة مسؤولة عن توفير هذه المصاريف، بالإضافة إلى سيارة فارهة تتغير كل عام تقريبًا، وزيارات إلى كبرى المراكز الطبية لعمل فحوصات دورية وأحيانًا عمليات تجميل

لزوجته. كنت أظن منذ أعوام أن الإشكالية تكمن في جهل الناس بحقيقة ما يحدث، ولكن رويدًا رويدًا أدركت مدى غبائي. ثمة حادث غيَّر مفاهيمي كلها. في الفترة الأخيرة تعرفتُ على إحدى السيدات التي تجاوزت عقدها الرابع. سيدة غير متزوجة. كانت تعاونني في بعض الأعمال الإدارية بالكنيسة، ولا يفوتها قداس واحد أو أي صلاة، بالإضافة إلى مواظبتها على الاعتراف بشكل أسبوعي تقريبًا. شرهة جدًّا للتحدث، من ذلك النوع الذي يستغل أي فرصة للتحدث معك إذا سمحت له. أدركت بالطبع أن ذلك ربما يعود إلى شعورها بالوحدة، وزادتني تيقنًا من ذلك حكاياتها عن بعض الظروف الشخصية التي جعلتها ترحل عن مصر وتعمل هنا مُدرِّسة بالكويت. ذات يوم وصل إلينا كاهن جديد قادم من مصر لمعاونة الكاهن الوحيد في الكنيسة في عمله. عندما وصل إلى الكنيسة للمرة الأولى، كنت بصحبة هذه السيدة ننهي بعض الأوراق والحسابات. احمر وجهها بشدة عندما رأته، وقبَّلت يده بخنوع. أدركت من نظراتهما المشتركة أن هناك أمرًا غريبًا. في يوم آخر جاءت كعادتها لأداء سر الاعتراف، وكان الكاهن القديم غائبًا، فلم تجد سوى الجديد. لاحظت ترددها وهي تدخل إلى مكتبه. غادرت المكتب في غضون دقائق بسيطة. عندما رأيتها في اليوم التالي، أخذت أستدرجها رويدًا رويدًا للحديث عن ذلك الكاهن الجديد. لم أكن أدرك في نفسي قدرة على الاستدراج بهذه المهارة من قبل. أخبرتني أن سبب نقل هذا الكاهن إلى الكويت هو إثارة ضجيج حوله بمصر إثر تُهم

بالتحرش. في البداية سألتها ولماذا إذَنْ ينقلونه إلى هنا؟ هل نقله إلى بلد أخرى سيجعله يتوقف عن التحرش مثلًا؟ قالت لي بقناعة حقيقية: إن حكمة الأسقف جعلته يتخذ هذا القرار لإبعاد الضجيج عن الكنيسة وعدم التسبب في أي عثرات لشعب الكنيسة بمصر. كدت أُجن من حديثها، لكني سألتها: وهل هذه الاتهامات صحيحة؟ صمتتْ قليلًا وأخبرتني أنها هي شخصيًّا تعرضت ذات مرة للتحرش منه. وقْع الصدمة جعلني غير قادر على التحدث فعليًّا. مرَّت أمامي صورتها وهي تدخل إلى مكتبه، وصورتها وهي تُقبِّل يده، وصورتها وهي جالسة أمامي الآن تحكي لي... لم أفهم... لم أفهم... نهضتُ من جلستي وانصرفت دون كلمة واحدة، وفي اليوم التالي بدأت أعد خطتي. لم يكن الأمر شديد الصعوبة. احتجت فقط إلى تخطيط كل تفصيلة بدقة. لم يكن لديَّ ما أنشغل به هنا سوى خطتي. أرسل إليك هذه الرسالة الآن وأنا في المطار، أتأهب لدخول الطائرة المتجهة إلى بلد جديد في النصف الآخر من الكرة الأرضية. نيل التأشيرة من هنا أسهل بالطبع من نيلها من مصر، لكني قمت بهذه الخطوة الأخيرة والحاسمة بعد إرسال مبلغ ضخم يتعلق بالكنيسة إلى حساب تبرع لمستشفى مجدي يعقوب. إنهم يبحثون عني الآن بالطبع وعن المال. كانوا يتركونه بين يديَّ لساعات قصيرة من أجل توفير بعض الإجراءات. أظن أنهما سيندمان على ذلك القرار لأعوام مقبلة. اتخذت هذا القرار تحديدًا بعد حديثي مع تلك السيدة. هل تفهم لماذا؟ أظنك لا تفهم. أدركت في تلك اللحظة تحديدًا أن عليَّ

الرحيل بعيدًا جدًّا، وها أنا راحل. لا أعرف لماذا كلفتُ نفسي عناء كتابة كل ذلك الآن، لكني كنت في حاجة ماسة فعلًا إلى ذلك».

* * * *

غامت الصورة أمام عينَي نظير، وأغلق مراد عبد العظيم عينه اليسرى ونظر باليمنى إلى سهام الجالسة أمامه، ثم أغلق اليمنى ونظر باليسرى. سألته سهام عن الأمر، فقال لها: «لا شيء... أحفظ ملامح وجهكِ جيدًا». في اللقاء الأخير ألحت سهام مجددًا على سرعة إجراء الخطبة. تتبع ذلك حساب النفقات: شراء دبلتين وخاتم على الأقل. كلما ازداد تفكير مراد في تلك التفاصيل المادية، شعر بمزيد من الضيق. في تلك الليلة جاءه اتصال من رقم مجهول. اتضح أنه بائع خان الخليلي. كان مراد قد غلبه اليأس من الأمر تقريبًا بعد مرور أكثر من أسبوع دون أن يتلقى اتصالًا منه. أخبره الرجل أنهم يريدون كمية ضخمة من هذه اللوحة، بالإضافة إلى أوجه ومناظر أخرى بنفس النمط بأحجام مختلفة. عرض عليه الرجل مائة جنيهًا للوحة، وأخبره أن السعر نهائي. صمت مراد للحظات ثم خطرت على ذهنه الفكرة سريعًا؛ فأخبر الرجل أنه موافق على السعر، لكنه في حاجة ماسة إلى أكبر مبلغ من المال لإتمام خطبته وبإمكانه أن يُوقِّع له ما يريده من إيصالات بهذا المبلغ. رفض الرجل في البداية لكن مراد ألح ووضَّح له أن موافقته مرهونة بذلك؛ لأنه إن لم يتقاضَ المبلغ سيضطر إلى العمل بوظيفة أخرى مما سيؤدي إلى اختفاء الوقت المتاح له للرسم

تمامًا. طلب منه الرجل أن يمهله يومًا آخر للرد. في اليوم التالي هاتفه فعلًا الرجل وأخبره أنهم سيقدمون له خمسة آلاف جنيهًا كاملة، لكنه سيوقع على عقد بإتمام ستين لوحة في مدة زمنية لا تتجاوز ثلاثة أشهر. ألح الرجل بتلقي الإجابة عن عرضه حالًا، وأخبره أن هذه هي فرصته الأخيرة. اندلعتْ عواصف التفكير في ذهن مراد في ثوانٍ قليلة، يحسب فيها المال والوقت ويتخيل فيها حجم الضغط الذي سيتعرض له أثناء تلك الفترة، لكنه استسلم لموجة اندفاعه ووافق. في اليوم التالي وقَّع العقد فعلًا وتناول المال. بحصوله على المبلغ، بالإضافة إلى مبلغ مثله تقريبًا استطاع توفيره طوال فترة عمله صار بإمكانه الآن إتمام الخطبة وشراء الخاتم والدبلتين. في اليوم التالي أوضح لسهام حدود قدراته المالية بدقة. أخبرته أنها شخصيًّا ليست في حاجة إلى أي شيء، لكن الأمر كله يتعلق بأبيها. طمأنته قائلة إن بإمكانهما بعد الزواج بيع الخاتم إن أرادا، ولكن التعجيل بزيارته إلى منزلها والتقدم وإعلان الخطبة أمر شديد الأهمية، وسيكون طوق النجاة لعلاقتهما. في ذات الليلة أرسلت إليه رسالة مفادها أنها استطاعت تحديد موعد له مع أبيها بعد ثلاثة أيام، وأن عليه أن يجهز أمره للقائه. قرأ مراد الرسالة وعاد إلى عمله باللوحة. التقيا في اليوم التالي وأتمَّا أمر الدبلتين والخاتم. في اليوم المحدد ذهب مراد إلى العنوان المنشود. طرق الباب، وفي انتظار أن يفتح له أحدهم ظل يحدق في لون دهان الباب القاتم ويتخيل ما إذا كان هذا اللون يصلح لأرضية إحدى اللوحات الستين أم لا. فتحت شقيقتها الصغرى الباب. نظرت إليه واجمة ولم تنبس بشيء. شعر

بالحرج، وقبل أن يتكلم وجد أباها قد حضر إلى المشهد، وأبعد الفتاة ورحَّب به وأشار إليه بالدخول. لم يحسب مراد كم مر من الوقت حتى وجد نفسه خارج الشقة، ولم يستطع حتى أن يتذكر ملامح الأب بعناية، ولم ينتبه لأي شيء بالشقة. كان ذهنه مشغولًا بأمرين، أو ربما أمر واحد؛ سهام واللوحة، وإن وضعنا في اعتبارنا كيف يستقي ملامح اللوحة من سهام يمكننا أن نقول إنه الأمر ذاته. رغم ذلك أدرك بوضوح غرابة الموقف. تم كل شيء بطريقة غريبة لا يستطيع تفسيرها. صحيح أن الرجل سأله الأسئلة المعتادة عن عمله ودخله ومخططاته وما إلى ذلك، وصحيح أن مراد حدَّثه عن طموحه في ترك العمل بشركة الغاز بعد مدة من الوقت واحتراف الرسم إن أمكن، لكن الحوار برمته بدا كأنه مُسجَّل، غير واقعي، وهذا ما جعل مراد غير قادر على تذكر التفاصيل، فالتفاصيل ترتبط في ذهنه بما هو مهم وحقيقي. صار جدول مراد اليومي بمثابة علبة توشك على الانفجار من فرط ما اكتظت به. الاستيقاظ في ساعة مبكرة، والعمل لمدة ٤٥ دقيقة تقريبًا بالرسم، ثم ارتداء الثياب على عجل والتوجه إلى العمل. إنهاء العمل، ولقاء سهام، ثم العودة بسرعة إلى الغرفة، والعمل لساعتين تقريبًا، ثم مدة قصيرة من النوم لا تكفيه والاستيقاظ مُعذبًا من أثر النعاس. أصعب ما في الأمر كذلك هو اضطراره إلى التفكير المستمر في اللوحات، فالعمل لا يقتصر على التنفيذ وحسب، بل هو في حاجة إلى ستين فكرة مختلفة في فترة زمنية محدودة. وسط هذه الدوامة بدأت لقاءاته بسهام تقل تدريجيًّا، ورغم الضغوط الزمنية الشديدة التي واجهها

كانت لقاءاتهما تُلغى من جانبها لا من جانبه. حتى اللقاءات التي تمت في تلك الفترة، اكتنفتها البرودة. في البداية ظن مراد أن الأمر بسببه؛ فكَّر في أن شعوره بالإرهاق والنعاس مثلًا قد أثرا على حرارة اللقاء، أو ربما بعض الهموم بالمنزل. أخذ يتذكر ما حكته له عن مصاعب واجهتها -ولا تزال- على مدار أعوام طويلة. ضغوط مستمرة بالعمل والمشاركة في تحمل أعباء المنزل بنسبة معتبرة من دخلها، والإصرار على تزويجها سريعًا. فكَّر كذلك أن إلغاءها لكثير من لقاءاتهما ربما يكون بدافع مساعدته في توفير الوقت اللازم لإتمام اللوحات، وأنها يقينًا تعلم حقيقة الوضع الضاغط الذي يحيا فيه. لكن كل هذه الأعذار لم تقدم له تفسيرًا واضحًا لصعوبة الوصول إليها تليفونيًّا. في الأيام الأخيرة لم تعد تجيبه تقريبًا. منذ يومين بالتحديد لم تجبه مطلقًا. شعر بالقلق الشديد إلى درجة لم يعد فيها قادرًا على التفكير في لوحاته أو حتى رسمها. أنهى عمله وذهب إلى مقر عملها. عاود الاتصال مرارًا وتكرارًا ولم تجب. انتظر خروج إحدى العاملات بالمكان، وعندما خرجت إحدى زميلاتها سألها عنها؛ فأخبرته أنها تركت العمل منذ بضعة أيام. سمَّرته المفاجأة في مكانه، ووجدت الفتاة نفسها مضطرة لأن تقول شيئًا. سألته عما إن كان يعرفها، فأجاب بصوت خفيض: «أنا خطيبها». ارتسم الحزن على وجهها وسألته ما إن كان بإمكانه أن ينتظر نصف ساعة حتى تنهي عملها؛ لأنها تود أن تحدِّثه. لم يُجبها بشيء وعادت إلى عملها. لم ينتظرها، بل تسمر في مكانه طوال تلك المدة التي لم يحسبها من الأساس. أنهت الفتاة عملها واصطحبته إلى

زاوية الشارع وقالت ما قالت. عاد إلى غرفته بقوى القصور الذاتي وأخذ يُحدق في لوحته الأخيرة. كان قد رسم ملامح الوجه الخارجية ولم يتمها بعد. عيناها في ملامح قبطية، كما يمكن لماكيير محترف أن يُحوِّل ممثلة ذات ملامح أوروبية خالصة إلى وجه صيني أو ياباني مثلا. يُغيِّر بعض التفاصيل فيتشابه الوجهان مع الحفاظ على الملامح الأساسية للوجه. نظر إلى هاتفه ولم يجد اتصالًا أو رسالة منها. هل يصدق كلام صديقتها؟ أيمكن أن يكون الخطيب التاسع فعلًا لها؟ أيمكن أن يحدث كل ذلك من أجل خاتم ودبلة لا يتجاوز ثمنهما عشرة آلاف جنيهًا؟ وإن كان والدها هو المسؤول عن المتاجرة بابنته بهذه الطريقة، كيف يمكن له أن يشل إرادتها إلى هذا الحد ويجبرها على أداء دور غير راغبة فيه؟ ما معنى إصرار صديقتها على التأكيد على أن سهام قد أحبته فعلًا، وأنها فعلت ذلك مضطرة بسبب الضغوط، وأنها تركت العمل في حالة انهيار؟ تذكر الآن وجه شقيقتها الصغرى عندما فتحت له الباب في زيارته الوحيدة لمنزلهم. كأنها أرادت أن تقول له: ارحلْ وانجُ بنفسك! تذكر كذلك تلك اللحظة التي شعر كأن وجه سهام انقسم إلى نصفين أحدهما فَرِح والآخر حزين، عندما قال لها: «أحبكِ». لا يصدق انتهاء الأمر بهذه الطريقة. عندما تيقن من امتناعها الكامل عن الرد، بل وإغلاق الهاتف تمامًا، وبالرغم من تحذيرات صديقتها له قرَّر الذهاب إلى منزلها. ذهب في اليوم التالي بعد عمله إلى الجيزة. اقترب من الشارع. قطعه ببطء شديد، وعندما لاحت العمارة أمام عينه مباشرة لاحظ وجود قهوة أمامها. اتخذ مقعدًا في المواجهة وجلس غارقًا في

أفكاره. راقب مدخل العمارة طوال ساعة تقريبًا ولم يظهر أحد منهم. ثم لاحظ أحدهم يفتح نافذة. لم يعلم أهي خاصة بشقتهم أم لا. راقب خيال أحدهم واقفًا عندها لكنه لم يتبين الوجه في الظلام. مع ذلك شعر بقوة أنها هي. كان صوت حدسه واضحًا جدًّا. نهض من على كرسيه فجأة ووقف موجهًا نظره إلى أعلى صوب النافذة، يراقب خيالًا أسود ساكنًا خلف درفة النافذة الموارِبة. لحظات واتخذ قراره بصورة نهائية. دفع ثمن فنجان قهوته وانصرف نهائيًّا عن المكان. وعد نفسه أن لا تطأ قدمه ذلك الشارع مجددًا طوال العمر. الأسئلة التي حيَّرته وعذَّبته على مدار يوم كامل لم تعد تشغله. لم تعد تفاصيل الخيانة تهمه، وحدود دورها في الأمر بالضبط. سيان الأمر بالنسبة له، ولن تتغير النتيجة. بوصوله إلى غرفته وجد اللوحات أمامه تتساءل عن مصيرها. كيف يتسنى له الاستمرار في لوحات طمح بها إلى تخليد ملامحها في أزمان لم تكن فيها، وكيف يمكن له التوقف بعد تعهده بإنهائها وما يترتب على ذلك من التزامات مادية وقانونية؟ تعذَّب طوال الليل من التفكير في تلك المسألة. أخذ يتخيل أن يمتد عذابه طويلًا إلى حد أن يصبح لزامًا عليه أن يرسم ستين لوحة لوجه يود أن ينساه. أيمكن أن يواجه أحدهم عذابًا فنيًّا أصعب من ذلك؟ لكن الأمر لم يقتصر على عذاب رسم ذلك الوجه، بل تخطى ذلك.... تخطاه حقًّا.

* * * *

إن كان مراد يواجه عذابًا فنيًّا، فثمة نوع آخر من العذاب يواجهه

نظير، وهو لا يدري أن عذاباته ستزداد وتتخطى كل حد. بمرور الوقت يزداد جنون حياته إبهامًا أكثر فأكثر، ويتضح كذلك عجزه عن فهمه.

يقول: واقفة أمامي تتحدث. أسمع صوتها، لكني لا أتبين شيئًا. أظل متجمدًا في مكاني أراقبها بسكون وهي تركض صوب غرفة ما. فجأة تعود الأصوات إلى أذني فأجدها مرتفعة بشدة. أمد يدي تلقائيًّا إلى الأمام كأني سأخفض صوت مذياع السيارة، لكني لا أجد شيئًا... فراغ! أفيق إلى حالي وأذهب مسرعًا إلى غرفة ابنتي وأجد زوجتي تمسك بيدها وتبكي. تدخل إحدى الممرضات إلى الغرفة وأفهم منها بصعوبة أن ابنتي بخير، لكن الجنين فُقِد. تظننا سنحزن على فقدان الجنين! أتهاوى على المقعد محدقًا في زوجتي وابنتي، وأحاول لملمة أشلائي المتبعثرة. هل أخبرهما الآن عن رسالة ابني؟ هل أنا قادر على التحدث من الأساس؟ أظل في سكوني أرقب كل شيء يتحرك من حولي بغرابة. تعلو الأصوات وتنخفض من تلقاء نفسها. أفرك أذني أكثر من مرة. ثمة شعور غريب، كأني نائم يود الاستيقاظ من نوم ثقيل بلا فائدة. تتناهى إلى أذنيَّ أصوات عربات إسعاف عديدة. أنظر من النافذة فأجد أعدادًا متزايدة من سيارات الإسعاف والشرطة والمطافئ تمر بالجوار. أشعر بقلق مبهم. أفارق الغرفة وأذهب إلى مدخل المستشفى الخارجي. كثافة العربات وعلو أصوات الإنذار جعل كثيرين غيري يخرجون من المستشفى يستطلعون ما يحدث. تزداد ضربات قلبي سرعة ويخيِّم عليَّ شعور ثقيل مقبض. أجد أحد

رجال الأمن بالمستشفى أمامي؛ فأسأله عما يحدث. فيخبرني أنه عرف من أحد أصدقائه القاطنين بالقرب من العزبة أن ثمة انهيارات مخيفة قد بدأت، ولا تزال مستمرة. ما إن سمعت ذلك، حتى وجدتني أركض كالمجنون. ركضت في البداية في اتجاه خاطئ، وسرعان ما عدت إلى المستشفى لأركض في الاتجاه السليم. لم أكن قادرًا على التفكير بوضوح، وكدت أُدهس أكثر من مرة. تعلقت بباب إحدى الحافلات، وقبل أن يطالبني الكمسري بالأجرة وجدتني أدفعه ثم أقفز من باب الحافلة مجددًا حينما انحرفت عن الطريق. رأيت توكتوك يمر بجانبي، أوقفته بطريقة خرقاء كاد أن يصدمني بسببها، وأمرته في حالة هيستيرية أن يأخذني سريعًا إلى العزبة. طوال الطريق لم أتوقف عن ترديد كلمة واحدة: أسرعْ... أسرعْ... أسرعْ! لا أعرف كم ألقيت له من مال حينما توقف على مبعدة من العزبة لتكدس عربات الأمن والأهالي أمامها. قفزت من مكاني. أول ما رأيت من على بعد كانت كومة هائلة من الغبار. في البداية تحركت بطيئًا، وعبر سحب الغبار الأبيض بدأ وجه يلوح أمامي تدريجيًّا حتى تشكلت صورة أخي لتملأ الفراغ الكائن الأمامي. صرختُ فزعًا وركضت. ارتفع طنين شديد في أذني، ومع سرعتي الشديدة كنت أرى كل شيء من حولي يتحرك بطيئًا بتصنُّعٍ غير واقعي. حاول البعض منعي من الدخول، وأظن أني ضربت أحدهم أو ضربني... تم كل شيء سريعًا وبطيئًا على السواء. دخلتُ إلى العزبة، وركضت وسط سحب كثيفة من الغبار الأبيض، وشعرت أني أراقب أحداث اليوم الأخير. توقفت للحظة عندما لم أعد

أرى شيئًا من كثافة سحب الغبار، وتلاشى الغبار أمام عيني لأرقب من بعيد بنايتين تتساقطان. تهاوت اليسرى صوب اليمنى، واليمنى صوب اليسرى حتى حطمت إحداهما الأخرى، ومن حولي خلفية من الصراخ والانفجارات. تسمرتُ للحظات في مكاني إلى إن انتهى مشهد سقوط البنايتين، وعاودت ركضي، مناديًا أخي بكل ما لديَّ من قوة. لمحت عن يميني ذراعًا بشرية منفصلة وسط حطام بناية ما، ودماء تغطي الصخور الأمامية. واصلت ركضي وكدت أن أدهس طفلًا في طريقي، تفاديته بأعجوبة في اللحظة الأخيرة، ثم سمعت صوت طلقة رصاص. لم أتوقف، ورأيت فردين يتصارعان، أحدهما بمطواته والآخر بسكينه، وقبل أن أبلغهما بثوانٍ رأيت بناية تسقط. دهست المُمسك بسكينه، ودفنت تحت أنقاضها المُمسك بمطواته. رأيت رأسه مُدمَّى بوضوح من شق بين الصخور. أكملت ركضي، ورأيت على يساري امرأة تبكي عجوزًا يستند إليها يبدو كأبيها. وجدتني أمام حطام يسد طريقي. تسلقتُ الصخور، وتناهت إلى آذاني صرخات المحبوسين تحتها. البعض يطلب النجدة، وآخرون يتضرعون إلى الله، وأحدهم يسبه. لم يوقفني كل ذلك. تسلقت كومة الصخور والركام، وفركت عينيَّ اللتين غطاهما الغبار الحارق. ركضت، وتعثرت، وجُرِحت، وواصلت صياحي حتى وصلت إلى بناية أخي، لكني لم أجدها. وجدتها ركامًا أمسكت النيران ببقاياه. انقطعت الأصوات حولي، ووقفتُ بجانب الواقفين نرقب المنظر في صمت. ركام في كل مكان، ومياه متفجرة تحت أقدامنا وبقايا لهب متساقطة، وانفجارات قريبة وبعيدة، وصراخ

دائم يغطي خلفية المشهد. انسحب كل ذلك إلى خلفية ذهني وارتفع طنين أذني. فركت أذني مجددًا؛ فوجدت أصابعي ملطخة بالدماء. تقدمت بطيئًا، وفتشت وسط الركام، وسرعان ما انضم البعض إليَّ. ظل كل منهم ينادي ذويه. أذكر أننا سمعنا فعلًا إجابة أحدهم. كانت امرأة. حاولنا الوصول إليها بلا جدوى. كتل خرسانية ثقيلة تحبسها. ظل زوجها يبكي ويصرخ بجانبها طالبًا النجدة. واصلت البحث مجددًا ولم أجد شيئًا. صعدت إلى قمة الركام وراقبت المكان من حولي. تناهت إلى أذني حشرجة خافتة. نظرت أسفل قدمي فإذا كلب قد انسكبت أحشاؤه يلفظ أنفاسه الأخيرة وبجانبه قطة تلعق رأسه. لن ننتظر الجحيم. لقد دخلناه بالفعل.

* * * *

يقف نظير ثابت ومراد عبد العظيم على الأرض ذاتها، في المنطقة عينها، يُحدِّق كل منهما في الركام الذي يحجب أصوات ضحايا لم يصل إليهم أحد. ينصت نظير إلى الأصوات عسى أن يجد بينها صوت أخيه المفقود، بينما يُمسك مراد رأسه بألم شديد، يود لو يدمره ليتخلص من هذه الأصوات التي تلاحقه ليلًا ونهارًا. أمضى كلاهما ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ دون طعام أو شراب تقريبًا داخل حطام عالم تقوضتْ أركانه وانفجر جحيمه. لجأت الحكومة إلى استدعاء أعداد ضخمة من العمال والمتطوعين للمشاركة في عمليات البحث تحت الأنقاض عن الضحايا أو بقاياهم، وشمل ذلك العاملين بشركة الغاز

التي يعمل فيها مراد. حدث ذلك في اليوم التالي لاقتراب مراد من منزل سهام ورؤيته خيالها -كما أخبره حدسه- خلف درفة النافذة الموارِبة. وصل مراد إلى العزبة بعد ساعتين تقريبًا من وصول نظير. كان الأخير قد نجح خلال تلك الفترة في الدخول إلى عمق العزبة حيث بناية أخيه المتهدمة. ظل ينصت السمع وينظر عبر الشقوق عسى أن يجد أخيه أو يسمع صوته بلا فائدة. كان يعرف أن أخاه يكون في هذا الموعد من اليوم في منزله نائمًا قبل بدء عمله المسائي. ثم فكَّر في أن معجزة ربما تكون قد حدثت وفارق أخوه المنزل قبل الانهيارات لسبب من الأسباب. أجرى عشرات الاتصالات وظل يستمع إلى الرسالة ذاتها التي تخبره بأن الهاتف مغلق. قضى ليلته الأولى على قمة ركام البناية، وزارته في لحظات نومه المتقطع أصوات المدفونين تحت الركام، ولم يَدْرِ أكانت في حلمه أم نومه. في ذلك الوقت كان مراد يكتشف مع بقية العمال مدى كارثية الوضع. كل محاولة لتحريك كتلة خرسانية لإنقاذ ضحية تهدد بتساقط الركام المجاور وقتل آخر فرصة لإخراج بعض الضحايا الآخرين. تطلب الأمر معدات ومهارات لم تكن متوفرة على الإطلاق. لم تسمح لهم معداتهم البدائية أن ينقذوا أحدًا سوى عدد قليل جدًّا. رأى مراد بعض هؤلاء الناجين، وكانت الملامح ذاتها ترتسم على وجوههم جميعًا؛ ملامح الهلع. فى إحدى المرات حاول مراد وأحد زملائه تحريك كومة من الركام للوصول إلى صوت واهن ضعيف أسفله فتساقط الركام بجانبهم وتعالت الصرخات واستمع مراد بوضوح إلى طحن عظام أحدهم وصرخاته التي امتدت لثوانٍ

قليلة قبل أن تختفي وسط حشرجات موته السريعة. زارت هذه الأصوات نظير في نومه المتقطع، وظل يبحث فيها عن صوت أخيه بلا فائدة. أفاق من نومته الأخيرة على رائحة بشعة، فإذا هي رئحة تحلل كلب ميت بجواره. نهض من نومته وابتعد خطوات عن الجثة المتحللة فتعثرت قدمه وسقط بعنف على كتفه، وفي لحظة سقوطه تساقط بعض الحصى والطوب الصغير من شق داخل الركام، فسمع نظير صوت أحدهم. نهض ممسكًا بكتفه المصابة متألمًا بشدة واقترب من ذلك الثقب. كان الليل قد خيَّم تمامًا والنور غير كافٍ. حاول إضاءة المكان بكشاف موبايله فوجده قد تحطم إثر سقطته الأخيرة. ابتعد عن الثقب والصوت يناديه مستغيثًا، لكنه مضى صوب أقرب جماعة إنقاذ، وكانت تضم مراد الذي تخشبت يداه على معوله بعد سماعه الأصوات الأخيرة. صرخ فيه نظير أكثر من مرة حتى استوعب الأمر. تحرك بآلية بينما ظل زملاؤه جالسين في مكانهم واجمين. وصل مراد إلى الشق الذي أشار إليه نظير. أشعل كشافه. لم يرَ شيئًا، وأنصت السمع، ولم يصل شيء إلى أذنيه في البداية. أدخل رأسه أكثر عبر الثقب، وللحظة شعر أنه رأى وجه طفل. حدث ذلك مع التماعة سريعة جاءت من نور كشاف متحرك تم تعليقه فوق إحدى الساريات التي نصبوها بالمكان. حينها صاح مراد منفعلًا في الطفل. أخرج رأسه ليخبر نظير الذي أتى به إلى هذا المكان فلم يجده. تناهت إليه حينها أصوات الطفل بوضوح يستنجد به. تبين بكاؤه، ورويدًا رويدًا تفهم تساؤلات الطفل عن أبيه وأمه وجدته. يتطلب السماع إليه أن يميل رأسه داخل الفجوة، وكان ذلك

يسد النور والهواء عن الطفل، فيخرج مراد رأسه مجددًا بسرعة ليفسح له المجال وينير له بكشافه ليتبين الطفل المكان الموجود فيه. عرف من الطفل أنه في مساحة بالكاد تكفي جسده. يسأله مراد عن اسمه وأسمائهم ويدونها. يحاول طمأنته وتهدئته، ويشرح له أن إخراجه سوف يستغرق بعض الوقت؛ لأن أي محاولة بدائية للحفر ستتسبب في انهيار الكتل فوقه، وبالتالي سيتوجب عليهم انتظار وصول بعض المعدات الحديثة. يصرخ الطفل معلنًا عطشه. يهرع مراد إلى زملائه، ويعود مجددًا إلى الطفل بعد أن أتى بزجاجة مياه يسكب منها قطرات بسيطة عسى أن تصل أي منها إلى وجه وشفتي الطفل. يسأله الطفل مجددًا عن أبيه وأمه، ويغيب صوته أحيانًا ويعود بعد دقائق إثر صيحات مراد. يكاد الأخير أن يُجن من فرط الانفعال. يُهرع إلى زملائه. يأتون مكرهين، ويتحققون من صدق ما قالوه له مسبقًا عن استحالة إنقاذ الطفل بهذه الأدوات البدائية. سيؤدي الحفر إلى مزيد من الانهيارات التي قد تقذف بهم هم أنفسهم إلى قاع الجحيم. ينادي مراد الطفل مجددًا. تارة يجيبه باكيًا، وتارة يختفي صوته. لا يعلم مراد كم قضى من الوقت بجانب تلك الفجوة المظلمة، كما لا يعلم نظير كم استغرق من الوقت هائمًا وسط جحيم الأنقاض حتى تبين طريقه إلى خارج المكان. يمضي نظير بخطوات بطيئة، إلى أن وجد نفسه قد وصل إلى كورنيش النيل. سار بمحاذاته حتى لاح ضوء الفجر. أدرك فجأةً أنه قارب على الانهيار من فرط الإرهاق. تحسس جيوبه، فلم يجد مالًا. أشار إلى أول ميكروباص مرَّ به، وقبل أن يدخله أخبر السائق أنه لا

يحمل مالًا. أشار إليه السائق بالركوب. ارتمى على المقعد بإنهاك فظيع، وشعر بجوع وعطش مريعين. استمع إلى أحاديث الركاب القليلين مع السائق عن انهيارات العزبة. قال أحدهم إن قريبه يشارك في عمليات الإنقاذ وقد أخبره أنهم انتهوا من عملهم تقريبًا، وإنهم سيفارقون الموقع اليوم. لم يتحدد عدد الضحايا أو عدد مَن تم انتشالهم. فارق نظير السيارة ووصل إلى شقته. فتح الباب، فوجد زوجته وابنته تبكيان في انتظاره. صاحت الزوجة غاضبة بسبب تركهما في المستشفى دون كلمة ، ودون حتى أن يدفع بقية الحساب. عاوده طنين أذنه، فشعر أنه يرى زوجته وهي تشيح بيدها غاضبة من خلف غمامة ثقيلة تحيط بكل ما حوله. فتح الثلاجة وعبَّ كمية كبيرة من المياه داخل جوفه، وارتمى على فراشه دون أن يقول كلمة واحدة. حدَّق في السقف أعلاه، فوجد وجه أخيه يغطيه كاملًا. لم يتبين أهي ابتسامة أم تقطيبة غاضبة تلك التي ارتسمت على الوجه. في هذه اللحظة تحديدًا أدرك حقيقة ما فقده. كان متيقنًا من موت أخيه، ولم تراوده أي آمال في نجاته. ليس باستطاعة أحد أن ينجو من هذا الجحيم. أغمض عينيه وقبل أن يغوص في نوم عميق ثقيل، راودته أفكار الانتقام بوضوح. ربما كانت مشاعر الانتقام تراود مراد عبد العظيم عندما أمره رؤساؤه هو وبقية زملائه بالانسحاب وترك الأنقاض بمَن تحتها كما هي بعد مرور ما يقرب من عشرة أيام. تأخر وصول معدات تفتيت ونقل الصخور والأنقاض إلى موقع الكارثة ليوم كامل بسبب ضخامة حجمها وعدم إمكانية مرورها عبر الشوارع الضيقة للعزبة على حد

قول المسؤولين. اقتضى الأمر هدم خمسة منازل لإفساح الطريق لها، بالإضافة إلى البدء في إزالة جسر لخط سكك حديد قديم بالمحاجر مارٍّ بشمال العزبة. رفض بعدها الأهالي –أو ما تبقى منهم– هدم المزيد من المنازل، فقد أدركوا أنه لا ضامن لهم على الإطلاق أن يُعاد تسكينهم. وجد مراد نفسه أكثر من مرة عُرضة للسب والتعدي البدني من بعض الأهالي الغاضبين. كان ينظر إلى بقايا البنايات التي لم تتهدم في هذه الكارثة ولا يستوعب كيف يمكن لأحد أن يقرر البقاء في هذا المكان بعد كل ما حدث. إنها مسألة وقت قبل أن تنهار بقية الأبنية. كل هذا لم يقنع الأهالي. تلاشت الأصوات تدريجيًّا تحت الأنقاض، فإما مات أصحابها من الجوع والعطش، وإما من إصاباتهم البالغة جراء الانهيارات، وفي النهاية جاءت أوامر الحكومة بالانسحاب من المكان وترك الأنقاض بمَن تحتها إثر مناوشات الأهالي المستمرة. حينها راودت مراد مشاعر الانتقام بعد أن أدرك التمثيلية الهزلية التي شاركوا فيها دون قصد بالذهاب إلى موقع كارثة دون أي تجهيزات تُذكر. تيقن كذلك أن الأهالي فهموا حقيقة الأمر حينما رفضوا هدم بقية المنازل. دخول المعدات الحديثة كان مجرد خدعة لهدم ما تبقى من المنازل بصورة أسرع. هذا ما اكتشفه مراد بنفسه من مراقبة سير الأحداث. لم تصل المعدات حقيقة ولن تصل، وكل ما حدث كان مجرد تبييض لماء الوجه. رغم محاولات منع الصحفيين من دخول المكان، نجح البعض في التسلل إلى العزبة، وحين وجدهم مراد قدَّم إليهم الصورة كاملة بغضب. رويدًا رويدًا أصبح وجهًا معروفًا بالمكان، حيث تسربت

أحاديثه من مصدر لآخر، وتغير موقف الأهالي منه حيث قضى أكثر من ليلة فيما تبقى من منازلهم بالمنطقة بالرغم من انسحاب جزء كبير من زملائه. طوال تلك المدة لم يكن قادرًا على النوم جيدًا، تلاحقه أصوات الضحايا في أذنه ولا يعرف أهي حقيقية أم لا. أدى ضعفه وهزاله بعد كل ذلك العمل الشاق وافتقاره إلى النوم إلى عدم قدرته على التمييز بوضوح بين ما يراه فعلًا وما يُهيأ له أنه يراه ويسمعه. لكنه كان يعلم أمرًا واحدًا؛ أنه قُدِّر له أن يرى الجحيم بعينيه. هذا ما أخبر نظير ثابت به نفسه أيضًا. قال لنفسه إنه قد عاصر الجحيم وأهواله، ولا ينقصه سوى أمر واحد وحسب؛ أن يَقْتُلَ! تشكلت فكرة القتل بوضوح أثناء خروجه من ركام العزبة. تذكر ما قاله له مهندس الحي خفية، وربط الكثير من الأحداث والأقوال معًا بسرعة شديدة ليلقي بمسؤولية هذا الجحيم الذي عاصره على كاهل رئيس الحي... نعم، هذا اللواء هو الذي سهَّل الطريق صوب هذه الانهيارات، وهو مَن قتل أخاه. مَن قتل، يُقتل! لم تراوده حتى أي شكوك حيال قدرته على إتمام هذه الفعلة أبدًا، وكان متيقنًا أن إتمامها لن يستغرق منه سوى لحظات بسيطة. صحيح أنه موظف بسيط في الحي، لكن هناك فرصة دائمًا لرؤية اللواء رئيس الحي داخل المكان للحظات. كل ما عليه هو أن يكون مستعدًّا دائمًا، وستفي سكين صغيرة بالأمر. بعدما درس الأمر بعناية حان الموعد المفترض. اقترب من بناية الحي، ووجد كعادة الأيام الأخيرة جماهير غفيرة متجمهرة حولها تندد بغضب بما حدث؛ بعد أن تسربت بعض المعلومات من عدة مصادر. وجد عربة اللواء موجودة في مكانها

المعهود وحراسة مشددة حولها وحول بناية الحي. قال في نفسه إن الفوضى ستعم المكان قريبًا وسيكون هو السبب لأول مرة في حياته. تحسس سكينه الكائنة في سترته ودخل المكان. في تلك اللحظة تحديدًا كان مراد عبد العظيم واقفًا بين بقايا أحد الأبنية التي كانت مُشيَّدة فوق صخرة عالية بالمكان. ينظر إلى الأسفل؛ فيرى منظر الخراب موحيًا بخرائب روحه التي استقبلت الخبر بمشاعر متناقضة بشدة. طوال تلك المدة كان اتصاله بالعالم الخارجي مقطوعًا تقريبًا، لكنه منذ دقائق استقبل مكالمة هاتفية من أمه. أخبرته باقتضاب أنها حاولت الوصول إليه طوال الأيام الماضية لكنه لم يجب على هاتفه، وأخبرته أن أخاه قد مات. لم يستوعب مراد الخبر في البداية، لكنها أكدته له أكثر من مرة: مات... مات ... مات، وانخرطت في بكاء مرير. سألها: كيف؟ قالت: وسط أنقاض العزبة. ارتج قلبه بعنف. لم يفهم سبب مجيء أخيه إلى العزبة، لكنه أدرك فكرة واحدة فقط: أخوه مدفون تحت ركام هذه الخرائب التي ينظر إليها. تبين حديثها بصعوبة؛ فأدرك أنه كان يعمل في إنشاءات المجمع السكني الفاخر المجاور، وتطلب الأمر منه زيارة إلى أطراف العزبة الملاصقة لحدود الكومباوند، وحينها بدأت الانهيارات ودُفِن تحت ركام إحدى البنايات ولم يستطيعوا انتشال جثته. أغلق مراد الهاتف، وحاول تبين مشاعره المتناقضة، حتى شعر بإنهاك حاد. كذلك شعر نظير بإنهاك شديد عندما اقترب أخيرًا من غرفة اللواء. لم ينتبه إليه أحد وسط فوضى المكان، خاصة بعد اندلاع معركة بين المتجمهرين في الخارج وقوات الأمن

المحدودة، مما جعل اللواء يستدعي سريعًا قوات أمن مركزي. تعذب نظير من هذا الإنهاك، وخشي ألا يستطيع طعنه بالقوة اللازمة. حاول استجماع شتات قواه في الممر الموجودة غرفة اللواء في نهايته. أغمض عينيه للحظات، ووجد نفسه يتمتم طالبًا معونة العذراء. كذلك أغمض مراد عبد العظيم عينيه محاولًا تبين مشاعره بدقة: أيشعر بالفرح أم بالأسف أم بالصدمة؟ ملأتْ رائحة الكيروسين التي رشتها قوات الدفاع المدني لتطهير المنطقة من روائح الضحايا أنفاسه بقوة. في تلك اللحظة وجد نظير ثابت باب مكتب اللواء قد انفتح فجأةً بعنف وخرج منه اللواء غاضبًا بخطوات مسرعة ومن خلفه بعض أتباعه. أدخل نظير يده سريعًا إلى جيب سترته. لحظات وينتقم لموت أخيه ويصلح كل شيء. نعم يُصلح كل الأخطاء، ويعود كل شيء إلى ما يرام. خطوات تفصل اللواء عنه، وكذلك فتح مراد عينيه فجأة ليرى ظلَّ جسدين يقتربان منه من الخلف سريعًا. دق قلبه بنفس عنف دقات نظير، وحين فصلت الأخير عن اللواء خطوات اعترض طريقه وقبل أن يخرج سكينه وجد يد اللواء تدفعه بعنف قائلًا: أفسح الطريق أيها الأحمق! ألقت به الدفعة إلى الحائط وتحرك سن السكين وجرح صدره جرحًا بسيطًا. مزقه الإنهاك وتهاوى على الأرض باكيًا. التفت مراد إلى الخلف ووجد رجلين يمدان أيديهما؛ فأدرك سريعًا أنهما يريدان إسقاطه من فوق هذا الجرف. ابتعد غريزيًّا بسرعة هائلة إلى الجانب الأيمن والتقط طوبًا صغيرًا قذف به الرجلين. أصابت طوبة أحدهما، والآخر أمسك بمراد. كادت المعركة أن تقذف الاثنين إلى الجرف لولا أن تمكن مراد من

الانسلال من بين يديه في إحدى اللحظات والركض. لكنه سرعان ما توقف بعد عدة خطوات، والتفت مجددًا إلى الخلف لتلتقي عيناه بأعين الرجلين. حدَّق فيهما للحظات، وحدقا فيه بصمت. القاتل (هما) والمقتول (هو) الافتراضيان على بعد خطوات بسيطة، وكل منهما لا يصدق أنه كذلك. فارقتْ مشاعر الخوف مراد تمامًا في تلك اللحظات واستُبدل بها شعور كئيب اكتنف روحه. لكن في اللحظة ذاتها تيقن أنه في حاجة إلى إتمام رسم الأوجه الستين في لوحاته، وأدرك أنه سيكون قادرًا على تحقيق ذلك قبل المهلة المحددة، وأن تلك اللوحات سترصد وجهه وأوجه مَن حاولوا قتله منذ أن فتح عينيه في هذه الحياة وحتى اللحظة الراهنة. عبء الفكر أثقل خطواته. لم تكن خطواته على أي حال أثقل من خطوات نظير الذي قام من جلسته بصعوبة، وتسللت همساته إلى أذنيه، حيث وجد نفسه يردد بهدوء: حاضر يا باشا... حاضر يا باشا!

* * * *